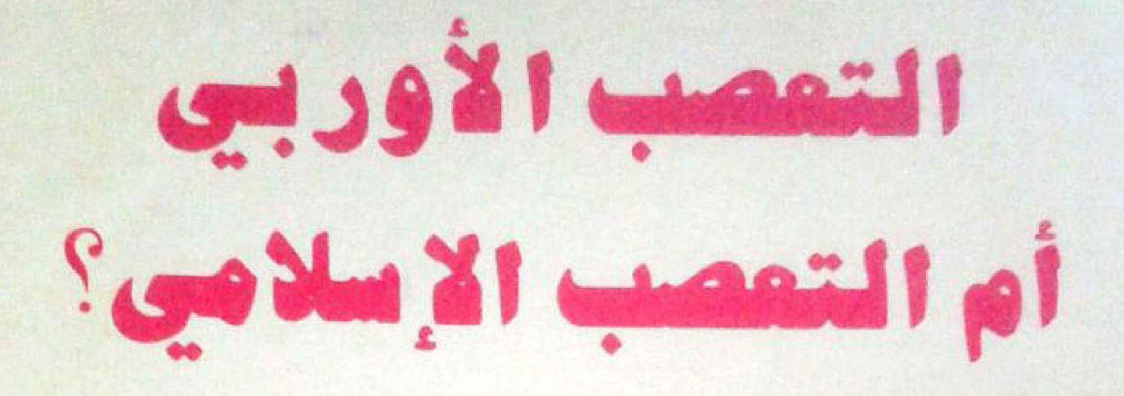


التعصب الأوربي
أم التعصب الإسلامي؟

تعليقات الأمير شكيب أرسلان

على كتاب

مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية

١٢٨١ م - ١٩١٣ م

علق عليه وهذبه وقدم له:

محمد العبده

دار ابن حزم

الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٨٣١٣٣١

يقول سكان الأسكيمو :

« ألا ما أجمل أن يكون غطاؤنا ثلجاً وجليداً وما أجمل أن يكون الذهب والفضة اللذين إن كانا كامنين في صخورنا ، فإنهما يكونان تحت غطاء كثيف من الثلج بحيث لا يستطيع الأوربيون الوصول إليهما » .

(قصة الحضارة)

« العيون الزرق ، والأنوف الطوال

أسأل الله أن يأخذهما جميعاً لديه »

أنشودة من شمالي باكستان

عن الأوربيين

« فالحضارة الغربية التي فقدت معنى الروح تجد نفسها بدورها على حافة الهاوية »

مالك بن نبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد :

فإن سنة التدافع من السنن الكونية التي أبرزها القران الكريم وجلاّها في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾ [البقرة ٢٥١] .

ومن هذا التدافع ما وقع من تصادم بين الإسلام والروم ، ثم مع نصارى أوربا وإلى يومنا هذا ، وكان من مؤيدات البعثة النبوية أن دفع الله الفرس الوثنيين بالروم النصارى ، ثم دفع الروم بالمسلمين الذين أزاحوهم عن بلاد الشام ومصر وشمالي أفريقيا ، ثم عن الأناضول والجزء الشرقي من أوربا ، فردت أوربا بأن أصلت العالم الإسلامي حروباً صليبية استمرت قرنين متواصلين ، ولكنها هزمت في النهاية وانسحبت من بلاد الشام ومصر ، ثم صدم العثمانيون أوربا صدمة شديدة ، مما جعلها تفكر وتخطط لايقاف هذا الزحف الإسلامي ، وما إن جاء القرن السادس عشر الميلادي حتى بدأت أوربا تنهض ، ولم يعد تفكيرها محصوراً باسترداد ما فتحه المسلمون من أراضيها . ولكنها عملت على تطويق العالم الإسلامي بأكمله ، وتابعت عدوانها حتى تحقق لها ما تريد في نهاية القرن الثامن عشر .

أصبحت أوربا قوة طاغية باغية ، تريد أن تجرف أمامها كل شيء ، فقد اكتشفت أسرار المادة ، وأخرجت خبء الأرض ، وامتلكت وسائل العلم والاختراعات ، ووسائل الأسلحة في مدة قصيرة ما لم تملكه البشرية من قبل ، ولكنها كانت وما زالت قوة بربرية ، سَخَّرت كل هذه الاكتشافات لتمد أجنحة سيطرتها على آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وتجعل العالم مزرعة لها ، يجب أن يأتيها خراجها منه (١) .

قامت أوربا هذه على وثنية اليونان ، وطغيان الرومان ومع أن النصرانية كانت عنصراً في تركيبة الحضاره الغربية إلا أنها بالنسبة للفرد الأوربي كانت قشرة خارجية تغلف هذا الداخل الوثني الذي يعبد القوة ويحب السيطرة ، وقد صدق من قال : « إن الروم لم يتنصروا ، ولكن النصرانية ترومت » فأوربا النصرانية هي أوربا : التسلط الروماني والنظرة الفوقية العنصرية ، يقول الفيلسوف الفرنسي «أرنست رينان» معبراً عن هذه العنصرية : « جنس واحد يلد السيادة والأبطال هو الجنس الأوربي ، فإذا ما نزلت بهذا الجنس النبيل إلى مستوى الحظائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون فإنه يثور ، فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يُتح له ما خلق له . . . » (٢) .

---

١ - قدر المؤرخون عدد الذين قتلوا من السكان الأصليين للقارة الأمريكية على يد الأوربيين ما بين (٢٠ - ٧٠ مليوناً) وحتى الآن لا تزال الأقلية الباقية من سكان القارة الأصليين يعيشون في عزلة واغتراب .
انظر : وليد نويهض : عصر الغلبة/ ٣٣ .

٢ - مالك بن نبي / وجهة العالم الإسلامي / ١٢٣ .

ومثال من التاريخ القديم ينبئك عن هذا التشابه والتطابق في النفسية والممارسة ، فقد ذكر المؤرخون أنه « عندما استسلمت مدينة قرطاجة الفينيقية للامبراطورية الرومانيه على يد الوفد المفاوض ، كان من شروط هذا الوفد أن يبقى لقرطاجة استقلالها وأرضها ، ووافق الرومان بشرط أن يرسل القرطاجيون ثلاثمائة من شبانهم رهائن للروم ، بعد كل هذا الذل والاستسلام لم يف الرومان بشروطهم ، وطلبوا من أهل قرطاجة مغادرتها لأنهم قرروا تدمير المدينة تدميراً كاملاً ، وقرر أهل المدينة المقاومة ، ولكنها دُمرت أخيراً وأحرقت ، وأصبحت أثراً بعد عين .... »[1] فهل يختلف ما تفعله أوربا اليوم عما فعله أسلافهم من الرومان ؟ .

إن المسلمين بحاجة ماسة إلى فهم - العقل الغربي - وقِيَمه ومُسَلَّماته الفكرية ، وأساليب تفكيره ، كما خطط الغرب لفَهم - العقل المسلم - وقِيَمه والمسلّمات التي ينطلق منها في تفكيره وعمله مستهدفاً تسخيرَ المسلمين لما يحقق أهداف الغرب في الهيمنة والنفوذ والاستغلال ، ومحور المسلمات الفكرية عند العقل الغربي ، هي فكرة الصراع والبقاء للأقوى ، فهي «(التوحيد)[2] الغربي الذي تنبثق منه جميع الأفكار والأعمال وليست الديانات السماوية والأخلاق ، والمثل الإنسانية العليا إلا - روافع - كما يسميها

---

١ - أشهر حصارات المدن في التاريخ ، إعداد مي علوش / ٧٤ .

٢ - أهميتها ومنزلتها كمنزلة التوحيد عند المسلم .

الساسة الغربيون لخدمة المُسَلَّمة المذكورة ، ولذلك احتل علم النفس منزلة الكتاب المقدس في علوم الغرب وخاصة في أمريكا وهو علم لايستعمل للتعرف على الحقيقة وإنما لتسخير الأفراد والجماعات والشعوب واستغلال مقدراتها المادية والنفسية وتراثها الثقافي لصالح المترفين في الغرب »[١] .

(٢)

وعلى المسلم أن يدرك أن : « هذا العالم الأوربي الباغي ، عدو شديد العداوة ، وأنه ماكر شديد المكر ، وأنه خبير حسن الخبرة بتهديم الأمم وردها القهقرى ، متردية في الغموض والحيرة ، وأن هذه القوة الأوربية دارت حول العالم الإسلامي تنقص من أطرافه بمهارة وحذر ، فدبّت دبيباً حول هذا العالم ، وجعلت تطوق شواطيء الإسلام في أفريقيا وآسيا بطوق من الثغور تحتلها ، ثم تَنفُذ من كل ثغر إلى بدن العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً بحذر وبلا ضجيج يزعج »[٢] .

إن نظرة الغربي إلى الشعوب الإسلامية هي « برنامج محفوظ في ذاكرته : شعب خامل ، جاهل متعصب ، أراضي خصبة ، معادن كثيرة مشاريع كبيرة ، هواء معتدل ، نحن أولى بالتمتع بكل هذا »[٣] .

---

١ - د. ماجد عرسان الكيلاني : إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها / ٥٧ .
٢ - محمود شاكر : أباطيل وأسمار / ٢٢٦ .
٣ - الأعمال الكاملة للأفغاني ٢ / ٧٦ .

هذه العقلية الأوروبية التي نشأت وترعرعت على حب السيطرة والنفوذ ، والتي ترى نفسها متفوقة ، لا تقبل بمنطق الضعفاء الذين يطالبون بحقوقهم عن طريق الرجاء والتمني أو عن طريق المنظمات التي أوجدها الأوربيون . نعم يمكن أن يستجيبوا إذا علموا أن وراء الكلمة قوة تحميها ، وتصميم لا مواربة فيه ولا التواء ، يقول الأديب الكبير محمود محمد شاكر : « وقد مضت العبر بأن هؤلاء القوم لا يكادون يفهمون إلا اضطراراً وبالقهر والغلبة ، فمن العبث أن ندعو هؤلاء القوم إلى سواء بيننا وبينهم ، لأن القوة قد أسكرتهم فأطاشت حلومهم ، وتركتهم لا يدركون إلا ذلك المعنى الخسيس للحياة ، معنى الفائدة العاجلة بغير نظر إلى عدل ولا نصفة . ومن العبث أن نحتال عليهم بما يسمونه السياسة ، فالقوي وحده هو الذي يعرف كيف يستفيد من السياسة »[1] .

لا يطيق الأوربي رؤية حضارة منافسة لحضارته ، وإذا اضطره الأمر فإنه يقبل بالهندوسي أو البوذي ، ولكنه لا يقبل بالمسلم ، ذلك لأنه يملك ديناً يعطيه حضارة متميزة ، ونظرة للحياة تغاير نظرة الغربي . وبعد سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي تأكد لدى الغرب أكثر من ذي قبل أن حضارته الرأسمالية الديمقراطية هي الحق ، وما عداها هو الباطل ، وكتب المتأمرك (فوكوياما) الياباني الأصل كتابه : نهاية التاريخ ،ليقول : إن النمط الغربي لتنظيم شؤون الحياة هو الذي سيسود العالم ولن يأتي شيء بعده .

---

١ - مجلة الرسالة، العدد ٧٣٠ م ١٥/ ٧٢٢.

(٣)

من أين جاءت هذه العداوة الدفينة للمسلمين الأتراك وللمسلمين بشكل عام ، حتى كأن الشاعر الجاهلي لقيط بن يعمر الإيادي يعنيهم حين قال :

في كل يوم يسنّون الحراب لكم

لا يهجعون إذا ما غافل هجعـا

خـزرٌ عيونهـم كـأن لحظهـم

حريق غاب ترى منه السَّنا قطَعاً

يقول الشيخ رشيد رضا عن مصدر هذه النظرة عندما تحدث عن الحُجُب التي تمنع الإفرنج من رؤية حقيقة الإسلام : « الحجاب الثاني : رجال السياسة الأوربية ، فإنهم ورثوا عداوة الإسلام من الكنيسة ، وتلقوا مفترياتها من الطعن عليه بالقبول ، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه طمعهم في استعباد شعوبه واستعمار ممالكهم »[1] ، ويقول الدكتور أحمد عزت عبدالكريم محللاً فترة ما بعد الحروب الصليبية : « وجد على المسرح الأوربي عناصر جديدة من ملوك وأمراء أشد حرصاً على بسط سلطانهم على ممالكهم وإماراتهم منهم على تبذير قواهم في بلاد بعيدة ، وكان هذا من شأنه إضعاف الروح الصليبية في أوربا ، ولكنها مع ذلك ظلت قائمة ، وظل للصليبين مواقع

---

١ - الوحي المحمدي / ٢٢

المتقدمة يشنون منها الإغارات على بلاد المسلمين كفرسان القديس يوحنا في رودس وقبرص ثم مالطة »[١] .

تربى الغربيون عاطفياً على أنهم هم المنقذون للبشرية وأن دينهم أرقى من الإسلام ، ولقد صدمتهم كتيبة الإسلام من العثمانيين ، فكان هذا الكره الشديد لهم .

يقول غوستاف لوبون « لقد تجمعت العقد الموروثة ، عقد التعصب التي ندين بها ضد الإسلام ورجاله ، وتراكمت خلال قرون سحيقة حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي »[٢] .

هل خبت هذه الروح التي لا تطيق مجاورة الإسلام ؟ إن ما فعلوه في البوسنة جاء ليؤكد أن هذه الروح لم تَخْبُ ، بل هي في ازدياد ، وما وقع في (البوسنة) فاق محاكم التفتيش في الأندلس ، أو إبادة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ، تقول الكاتبة الأمريكية (سوزان سونتاغ) : « إن وزراء الثقافة في المجموعة الأوربية يتسترون على أكبر جريمة قتل جماعي في تاريخ أوربا تقع تحت سمع وبصر الجميع ، إن أجهزة التلفزيون تنقل كل ما يحدث في سرايفو لحظة بلحظة ومع ذلك لم يتحرك أحد لمنع هذه الجريمة التي تقع في قلب أوربا »[٣] . ويقول الكاتب الاسباني (خوان غويتيسولو) معلقاً على أفعال الصرب

---

١ - دراسات في تاريخ العرب الحديث / ١٦ .

٢ - وجهة العالم الإسلامي / ٣٨ .

٣ - صحيفة الحياة ١٤/١١/١٩٩٣ م .

الإجرامية وتدميرهم للمكتبات والمساجد : « بعد خمسة قرون تقريباً على حرق المخطوطات العربية الغرناطية في باب الرملة تنفيذاً لأمر الكاردينال (تيسيزوس) تكرر المشهد بشكل أعنف حين حقق الصرب أحلام انتقام أسلافهم بإحراق (٥٢٠٣) مخطوطة عربية وتركية وفارسية تبخرت إلى الأبد ، هذا الكنز الذي تم تدميره بهذه الطريقة البشعة يضم أعمالاً في التاريخ والجغرافيا والرحلات والفقه والفلسفة والعلوم الطبيعية . . . اليوم لايبقى من المكتبة سوى حيطانها الخارجية ، وفي الحقيقة فإن تلك الجريمة يمكن وصفها بدقة بأنها (اغتيال الذاكرة) لأن المطلوب هو إزالة أي أثر إسلامي من أرض صربيا الكبرى . . » .

ويقول المتعصب الروسي (جيرنيو فسكي) الذي ظهر أخيراً بقوة على المسرح السياسي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي : « إن جميع مصائب روسيا آتية من الجنوب [١] ولابد من حملة صليبية يشنها الجيش الروسي للوصول إلى شطآن المحيط الهندي والبحر المتوسط » ويقول أيضاً « فالجنس التركي الملعون (!!) هو الجنس الذي هدد أوربا ولا يزال ، وهو الجنس الذي دمّر القسطنطينية وقرع أبواب فيينا ، وشن حرب إبادة على العرق السلافي » [٢] . وفي مقابلة مع هذا الحاقد العنصري ، يقول : « سنطرح تجزئة تركيا وإيران وأفغانستان بوصفها دولاً مصطنعة

---

١ - أي : من المسلمين .

٢ - جريدة الحياة ٦/ ٥/ ١٩٩٤ م .

لا آفاق لها ، خذ تركيا مثلاً : فقبل خمسة قرون ركب الأتراك خيولهم ويمموا صوب الغرب حيث كانت تزدهر الامبراطورية البيزنطيه بعلومها وفنونها ، الآن هناك استانبول بدلاً من القسطنطينية ، إنه اغتصاب أراضي الغير ، ينبغي أن تعود الأمور إلى نصابها ، وأن يتحد العالم المسيحي مجدداً في القدس ، وأن تصدح في القسطنطينية أجراس الكنائس . . . إذا لم نتحرك نحو الجنوب فإنهم (المسلمون) سيصعدون إلى الشمال ، وليس ثمة خيار ثالث »[١] .

قد يقال إن كلام (جيرنيوفسكي) هذيان رجل أحمق ، ولكن التاريخ عودنا أن أمثال هؤلاء يمكن أن يتحكموا بمصير شعوبهم ، ويتصرفوا تحت ضغط جنون العنصرية وجنون العظمة .

ويقول أحد الباحثين وهو يتكلم عن الأمثلة التي علقت بأذهان الأوربيين عن شخصية المسلم : « موعظة الحرب التي قدمها (مارتن لوثر) واعتبر فيها أن التقدم العثماني يأتي لتحقيق نبوءة النبي (حزقيال) بأن الشيطان سيهرب من سجنه[٢] وكذلك رؤيا القديس (يوحنا) التي يقول فيها : « انظروا . . . أنا أسلط عليكم السيف ، سآتي بأحط الشعوب لتحتل بيوتهم » . وكان من أكثر الكتب شيوعاً في تلك الفترة (القرون الوسطى) كتاب : (معاناة المسيحيين المحكومين والمستعبدين من قبل الأتراك) لمؤلفه الكرواتي (بارثو لوميو جوفيتش)

---

١ - المصدر السابق ١٠/ ٥/ ٩٤ .

٢ - فالشيطان هنا هم العثمانيون .

عـام ١٥٤٤ م ، وآثار تلك الحملات يمكن العثور عليها بسهولة في الحضارة الأوربية الحالية مثلاً في الاستعمال المهين لكلمة (تركي) بمعنى الغبي في اللغة الهولندية ، وقد اتخذت جزيرة كورسيكا أخيراً رمزاً لها العلم الذي يحمل (رأس المغربي) الذي يعود إلى القرن الثامن عشر ، والمأخوذ أصلاً عن الصليبين [1] .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : « إن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كُمُون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل ، وإن ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً هو عندهم في بلادهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، وما يدعون عندهم في الغرب إباء النفس والشرف الوطني يعدونه في الشرق علواً مكروهاً » [2] .

قد يتبادر إلى الأذهان سؤال أو يقول قائل : إذا كان الغرب كما وصفت [3] أليس عنده ايجابيات ؟ . ونقول : نعم عنده ايجابيات أفادته في حياته الدنيا ، سواء جاءته عن طريق التجربة والتفكير البشري ، أو عن طريق النصرانية التي وإن كانت مُحرفة ولكنها هذبت حواشيهم وما كانوا عليه من البعد عن المدنية ، ثم جاء احتكاكهم بالإسلام وأهله

---

١ - الحياة ١١/ ٥/ ١٩٩٤ م .
٢ - حاضر العالم الإسلامي ١/ ١٣٧ .
٣ - لم نظلمه في كل ما وصفنا .

ودراسة شرائعه كعامل من عوامل نهضتهم ، ولهذه الأسباب استمرت حضارتهم هذه القرون الأخيرة ، فهم كما يردد شيخ الإسلام ابن تيمية مقولة : « إن اللّه يقيم الدولة العادلة الكافرة ، ولا يقيم الدولة المسلمة الظالمة » كم أن اهتمام حكوماتهم بشعوبها ، وحرية تلك الشعوب في تقويم الحكام ، وإنفاقهم الأموال الطائلة على الخير العام ما يذكرنا بكلام الصحابي عمرو بن العاص رضي اللّه عنه الذي جاء في صحيح مسلم وهو يذكر الروم «إن فيهم لخصالاً أربعاً : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف . . . . »[1] الحديث .

وليس المجال هنا للحديث عن الحضارة الغربية وما فيها من سلبيات أو ما فيها من العوامل التي تساعدها على الاستمرار والقوة ، فهذا حديث يطول وله مكان آخر ، ولكن لنأخذ مثالاً من تجربتهم في (الوحدة الأوربية) يدل على جَلَدهم ومتابعتهم لأمور دنياهم بتعقل وروية، فهؤلاء القوم لا يسقطون سريعاً كما سقطت الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ففيهم خصال تمنع عنهم التدهور السريع الذي يظنه بعض الكتاب، وإن كانت الحضارة الغربية بشكل عام فيها من المفاسد ما يجعلها تتآكل وتنحدر .

---

١ - مختصر صحيح مسلم/ ٢٩٦ .

(٤)

ونعود للتأمل في تجربتهم للوحدة الأوربية لنرى العقلية الغربية من داخلها ، « فتجربة الوحدة الأوربية لم تأخذ - خلافاً لواقع الحال في سائر تجارب التاريخ الوحدوية - شكلاً جاهزاً وفورياً ومكتملاً من لحظة الــولادة ، بل أخذت على العكس شكل (بناء) مع كل ما تعنيه هذه الكلمـة من امتـداد في الزمـان ومن تدرج في إقامـة هيـاكل الوحـدة اقتصادياً وسياسياً ، والواقع أن فكرة الوحدة الأوربية تعود في بذورها الأولى إلى قلة من الرواد ولا سيما في صفوف المثقفين والكتاب ممن اشمأزوا من حالة العنف والحرب الدائمـة التي اتسمت بها العلاقات الأوربية منذ تجزئة امبراطورية (شارلمان) بين أبنائه الثلاثة ابتداء من عام ٨٤٣ م وكان من هؤلاء المفكرين (دانتي) و (مونتاني) و (روسو) و (كانط) . وفي عام ١٨١٤م بشر الكونت الاشتراكي (سان سيمون) بقيام أسرة أوربية متعاونة من خلال برلمان ما فوق قومي [١] ، وفي مؤتمر للسلم المنعقد في عام ١٨٤٩ م وجه (فكتور هوجو) نداء من أجل قيام الولايات المتحدة الأوربية في القرن العشرين »[٢] .

إنهم يخططون للمستقبل القريب والبعيد ، وبعض مشروعاتهم نفذت بعد مئات السنين كما ذكر مؤلف (مئة مشروع) فانكلترا حققت بعد (٧٠٠) سنة ما أراد (سانوتو) تحقيقه .

---

١ - هذه لغة الصحافة اليوم أو الترجمة الحرفية للنصوص الأجنبية ، وهو يعني برلمان يعلو على القوميات الصغيرة .

٢ ـ البناء الأوربي : الحياة ٢٢/ ٤/ ٩٤ .

إن الخبراء في علم الاجتماع البشري هم الذين يكتشفون طرق الغربيين في تفكيرهم السياسي ، يقول أحدهم واصفاً سياسة الإنكليز : « فبريطانيا لا تفتر تحدث فتوحاً في البلاد ، فتدخل من أضيقها فتوسعه وترقب أصغر حدث فتجسمه ، وتعمل على شق عصا القوم وتقسمهم أحزاباً ، وتكون نصير المتباغضين ، سُنّةَ جرت عليها دولة بريطانيا ورجالها فلا يحيدون عنها » . ويصف الأستاذ محمود محمد شاكر المعركة بين الغرب والعالم الإسلامي فيقول : « لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الأوربي المسيحي وبين العالم الإسلامي معركة في ميدان واحد ، بل كانت معركة في ميدانين : ميدان الحرب ، وميدان الثقافة ، ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاح في ميدان الحرب لأسباب معروفة ، أما ميدان الثقافة فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلاً بعد جيل بل عاماً بعد عام ، بل يوماً بعد يوم ، وكانت هذه المعركة أخطر المعركتين وأبعدها أثراً ، وأشدهما تقويضاً للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي ، وكان عدونا يعلم ما لا نعلم ، كان يعلم أن هذه هي معركته الفاصلة بيننا وبينه ، وكان يعلم من خباياها ما لم نعلم ، ويدرك من أسرارها ووسائلها ما لا ندرك ويعرف من ميادينها ما لا نعرف ، ويصطنع لها من الأسلحة ما لا نصطنع . . . »[١] .

---

١ - أباطيل وأسمار/ ١٠ .

(٥)

إن الحديث عن أوربا والدولة العثمانية يجرنا للحديث عن بعض ملامح الدولة العثمانية بايجابياتها وسلبياتها ، وهذا ليس تقويماً للدولة[١] بقدر ما هو وضع القارىء في صورة الأحداث حتى تكون النظرة أقرب للشمولية . لأن هذه الدولة كانت محور الصراع لقرون عديدة .

١ - ولعل أول ما نلمح من هذه الدولة هو غلبة الجانب العسكري على الجانب الحضاري العلمي الدعوي ، مع أن قوة هذا الجانب أدت إلى فتوحات مهمة في أوربا وغيرها ، فقد نشأت الدولة العثمانية في أواخر القرن السابع الهجري ، في الجزء الشمالي الغربي من بلاد الأناضول مما كان يسمى يومها (بلاد الروم) واتجهت بعد التأسيس غرباً باتجاه أوربا ، واستولت على بلاد البلقان كلها وفتحت القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، ووصلت في عهد السلطان سليمان إلى قلب أوربا ، وحاصرت عاصمة الامبراطوريه النمساوية (فيينا) ، وكان ملوكها الأوائل يقودون الجيوش بأنفسهم ، وقد أسسوا جيشاً قوياً منظماً ، وكانت رسائل السلاطين إلى الشعوب الإسلامية مبشرة بالفتح المبين والانتصار على الكفر ما

---

١ - لا أظن أن هذه الدولة درست دراسة علمية حيادية وقومت تقويماً صحيحاً غير ملوث بالأغراض حتى الآن ، ولعل الله ييسر من يقوم بهذا العمل المهم من المؤرخين المسلمين .

يدل على النية الطيبة إن شاء اللَّه ، ثم ضعفت الدولة بعد سلاطينها الأوائل ، ولكن طبيعتها العسكرية لازمتها حتى النهاية ، وبقيت تحارب روسيا والبلقان حتى أنهكتها الحروب واستنفدت كل طاقاتها الاقتصادية والسكانية .

٢ - استطاعت هذه الدولة في إبان نشأتها الأولى أن تجمع شمل المسلمين في بلاد الشام ومصر والعراق والحجاز واليمن وشمالي أفريقيا ، وكانت وحدة هذه الشعوب قد تفككت بعد زوال الخلافة العباسية .

٣ - أوقفت الخطر البرتغالي والأسباني الذي بدأ بالالتفاف حول العالم الإسلامي عن طريق البحار ، واستطاعت أن تحمي المناطق الإسلامية من الغزو الأوربي الذي تأجل أربعة قرون حتى جاءت الفرصة المناسبة بعد ضعف الدولة العثمانية ، فما أن استهل القرن التاسع عشر حتى بدأت أوربا بقضم الكعكة شيئاً فشيئاً .

٤ - ومن مزايا هذه الدولة أنها أوقفت الزحف الشيعي الذي كان يتولاه الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران أو ما يسمى يومها (بلاد العجم) وأراد نشر هذا المذهب في العراق وبلاد الأناضول (ربما بتشجيع من غلاة الصوفية) ولكن الشاه انهزم في معركة (جالديران) أمام السلطان سليم الأول ، ودخلت الجيوش العثمانية العاصمة (تبريز) ، ولو قُدر للعثمانيين الاستمرار في الزحف شرقاً للاتصال بمسلمي الهند لكان أولى لهم من استمرار التقدم باتجاه

أوربا التي جمعت كل قواها لايقاف الزحف الإسلامي ، فبدت الدولة كل قواها لتثبيت أقدامها في شرق أوربا حيث كان الصرب والكروات والبلغار يشغلونها ويستمدون العون من أوربا ، وفي هذه الأثناء التهمت روسيا كل الأقاليم الإسلامية في آسيا الوسطى من (بخارى) إلى (باكو) .

٥ - كانت الدولة في أول عهدها تشجع العلم والعلماء ، وتهتم بالتنظيم الإداري ، ولكنها ارتكبت خطأ كبيراً حين لم تعتمد اللغة العربية لغة العلم والإدارة « فلم يكن للعربية تقدم ، بل تأخر ، والفقه الإسلامي تابع للعربية ، لأن مادته القرآن والسنة وهما عربيان ، والعلماء الذين تصدوا للقضاء والإفتاء لسانهم أعجمي لا قبل لهم بفهم بلاغة القرآن ، فلذلك لم يشتغلوا بالاجتهاد »[1] .

٦ - اهتمت الدولة بعمارة المساجد ، ووجد من السلاطين وبعض الولاة من يهتم بالعلم وإنشاء المكتبات ، ولكن لم يكن هناك سياسة واضحة للدعوة بين صفوف الشعوب التي خضعت للحكم العثماني ، ولذلك لم يرسخ وجودها في تلك الأقاليم ، كما إن تعلق الدولة بالطرق الصوفية وخاصة (البكتاشية)[2] الغلاة مما أضرَّ بها وحرمها من التجديد والاجتهاد .

---

١ - محمد بن الحسن الحجوي / الفكر السامي ٢/ ١٦٨ .

٢ - ربما تكون البكتاشية ستاراً صوفياً للفرق الباطنية .

٧ - ومن الأخطاء الكبيرة ، اعطاء الدولة الامتيازات الخاصة لغير المسلمين التي توسعوا فيها واستغلتها أوربا ، وجعلتها ثغرة للدخول منها والتمدد لتأمين مصالحها ، يقول الشيخ رشيد رضا : « ومن المثلات والعبر في هذا أن المسلمين أباحوا في حال عزتهم وسلطانهم لأهل الملل الأخرى حرية واسعة في دينهم ومعاملاتهم في بلاد الإسلام عادت على المسلمين ودولهم بأشد المضار والمصائب في طور ضعفهم ، كامتيازات الكنائس ورؤساء الأديان التي جعلت كل طائفة منهم ذات حكومة مستقلة في داخل الحكومة الإسلامية ، ومن ذلك ما يسمونه في هذا العصر بالامتيازات الأجنبية التي كانت فضلاً وإحساناً من ملوك المسلمين فصارت امتيازات عليهم ، مذلة لهم ، مفضلة للأجنبي عليهم في عقر دارهم ، حتى أن الصعلوك من أولئك الأجانب صار أعز من أكابر أمرائهم وعلمائهم »(١) .

ولا نستطيع في هذه العجالة الاسترسال في ذكر الايجابيات والسلبيات عن الدولة العثمانية ، فهذا له موضع آخر . والدولة العثمانية بحاجة أكيدة لدراسات أشمل وأعمق مما هو متوفر بين أيدينا ، ومثل هذه الدراسات ستحقق فوائد كثيرة لارتباط تاريخ المسلمين الحديث بهذه الدولة .

---

١ - تفسير المنار ١٠/٩٨ .

(٦)

إن الغرب الذي خطط لاقتسام العالم الإسلامي نراه هذه الأيام فرحاً فخوراً بانتصاراته وتقدمه العلمي وتراكم ثروات العالم بين يديه ، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي والأحزاب الشيوعية ، ولكن هذا الأشر والبطر سيكون وبالاً عليه « وليعلم أولئك الذين يزعمون أنهم قوامون على الحضارة الإنسانية أن لكل شيء نهاية وأن نهاية الغدر بالمعاهدات ، ونهاية هذه الأكاذيب المتفشية ، ونهاية هذه الغطرسة العنصرية وتلك الثرثرة المنشورة ، نهاية هذه جمعياً سُمٌّ مُصفيّ يتسرب في شرايين أوربا » [١] .

---

١ - مالك بن نبي / وجهة العالم الإسلامي / ١٢٥ والكلام للكاتب (إميه سيزير) .

هــذا الكتـــاب

إن كتاب (مئة مشروع لتقسيم تركيا) هو من تأليف الوزير الروماني (ت. ج. دجوفارا) [١] وقد كتبه بالفرنسية ، وظهرت الطبعة الأولى منه في باريس عام ١٩١٤ وقدم للكتاب الأستاذ في كلية الحقوق وكلية العلوم السياسية (لويس رينو) ويبلغ حجم الكتاب (٦٥٠) صفحة من القطع المتوسط وأثناء تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب (حاضر العالم الإسلامي) لمؤلفه (لوثروب ستودارد) تكلم الأمير شكيب على التعصب الأوربي والرد على تهمة التعصب الإسلامي ، ونقل عن كتاب (التسامح الإسلامي) وكتاب (تاريخ البابوات) وذكر أقوال بعض الأوربيين في العرب والمسلمين وتسامحهم ، ثم عرّج على واقع النصارى في البلاد الإسلامية وكيف أنهم عاشوا دون أن ينالهم أي أذى . وكنموذج على تعصب النصارى الأوربيين ذكر كتاب (مئة مشروع لتقسيم تركيا) وعرضه عرضاً وافياً والكتاب دراسة وثائقية لحقبة طويلة من الصراع بين الإسلام وأوربا ، ولعله يتيسر في المستقبل إن شاء اللّٰه ترجمة الكتاب ترجمة كاملة عن الفرنسية .

---

١ - وقد شغل منصب وزير دولة رومانيا في بلجيكا ولوكسمبورغ ومنصب قائم بالأعمال في مدينة بلغراد ، ومسؤول دبلوماسي في (صوفيا) ومبعوث فوق العادة إلى العاصمة الآستانة . وقد كتب أيضاً عن المعاهدات والمواثيق الدولية المتعلقة برومانيا ، وله دراسات في الأدب والاجتماع باللغة الفرنسية ، وكتاب (مئة مشروع) الذي نحن بصدده يوجد نسخة منه في المكتبة البريطانية التابعة للمتحف البريطاني في لندن تحت رقم 9136 . K. 10 و .

إن تقديم هذا الكتاب في المرحلة الراهنة مما يساعد على معرفة أساليب الأوربيين السياسية خاصة وقد شاعت أخيراً نغمة التعصب التي يرددها الغرب ، وينبذ المسلمين بشتى الألقاب مثل (التطرف) و (الأصولية) والتي تلقفها الببغاوات عندنا الذين مُسخت شخصياتهم وأضحوا أسوأ من أسيادهم .

(١)

إن هذا الكتاب [١] ليس كتاباً تاريخياً بقدر ما هو كتاب سياسي يخبرك عن مكنون العقل الغربي وكيف يفكر ويدبر ، وكيف يتابع مشاريعه الكرة بعد الكرة حتى يصل إلى أهدافه ، فإن أوربا ما فتئت تخطط لتقسيم العالم الإسلامي ، أو قل : لتفتيته ، وكانت الدولة العثمانية [٢] في المواجهة ، وكانت تمثل الأجزاء الكبرى من العالم الإسلامي وقد أحصى مؤلف هذا الكتاب (مئة مشروع) لتقسيم هذه الدولة ، تقدم بها سياسيون وقساوسة ومفكرون وأطباء يقترحون كيفية تقسيم بلاد الإسلام . فالكل متفق على إضعاف الدولة العثمانية وتفكيكها .

---

١ - مع المقدمة التي كتبناها والتعليقات عليه .

٢ - ويسميها المؤلف (تركيا) والأصح : الدولة العثمانية ، وقد كانت دولة واسعة الأرجاء ، ضمت شعوباً مختلفة ، شاركت في الدولة وإن كان الأتراك العثمانيون هم الحكام والقوة الرئيسية ، والمقصود بالتقسيم ليس الدولة العثمانية بل العالم الإسلامي .

كانت أوربا في أوج صراعاتها الداخلية عندما خططت لهذه المشاريع فكيف سيكون الأمر لو أنها كانت موحدة ، أو تعيش بلا صراعات ؟ .

عندما يسمع المرء (مئة مشروع) يظن للوهلة الأولى أن هذا الرقم للمبالغة أو هو رمز لكثرة المشاريع ، ولكن بمجرد أن يبدأ في القراءة ، سيكتشف حجم التدبير ، وأنها (مئة مشروع) فعلاً . استغرقت الفترة الممتدة ما بين (١٢٨١ - ١٩١٣ م) أي حوالي ستة قرون ، ولا شك أن (العرض مستمر) ولكن بأشكال أخرى .

إن أول ما يلفت النظر في هذه المشاريع هذا الدأب الذي لا يمل ولا يكل ، وهذا الإصرار رغم الفشل الذي أصاب الكثير منها ، أو إهمال الحكومات لبعضها ، وهذه ميزة تحسب لهم ، وإن كانت سيئة بالنسبة لنا . كما يتضح من هذه المشاريع أن الأوربي ينظر إلى العالم الإسلامي وكأنه أرض (سائبة) ليس لها مالك ، فهذا القطر لفرنسا ، وذاك لبريطانيا وثالث للنمسا . . . . ومن الغرائب في هذه المشاريع أن بعض مقترحيها من المفكرين أو الفلاسفة الذين قد يُظن لأول وهلة أنهم من الداعمين لحرية الشعوب ونصرة العدل .

لم يكن المستهدف في هذه المشاريع الدولة العثمانية أو الأتراك فحسب ، بل كان العالم الإسلامي بأسره ، فإقليم مراكش على سبيل المثال لم يكن تابعاً للدولة العثمانية ولكنه داخل في غنائم أوربا .

لم يترجم الأمير شكيب أرسلان هذا الكتاب ترجمة حرفية ، بل لخصه وصاغه بأسلوبه المعهود المشهور ، والأمير شكيب مولع بالتفاصيل التي يحشد فيها عشرات الأسماء والقصص ، وبما أن هذا الأمر لم يتكرر كثيراً فقد هذَّبتُ الكلام في بعض المشاريع ، وحذفت الزيادات التي لا تهم القارىء كثيراً ، ثم علقت على بعض العبارات مقارناً بواقع أوربا اليوم وواقع المسلمين وشرحت ما لابد من معرفته من أسماء البلدان والمعارك ، وأبقيت تعليقات الأمير شكيب في الهامش كما هي وأشرت إليها بحرف (ش) . وربما يتعب القارىء من كثرة الأسماء الأجنبية المذكورة في هذا الكتاب ، ولكن متابعة القراءة للمشاريع الصليبية سيتيح الفرصة له لاكتشاف طريقة هؤلاء القوم في العمل ، وهذا كاف لأن يصبر ويتابع هذه المشاريع . وقد رجعت لكثير من المصورات العربية والأجنبية ، ولكثير من المعاجم والأطالس التاريخية لتحديد الأماكن والدول التي اندثر بعضها ، أو تغيرت الأسماء ، وليس بالأمر السهل تغطية فترة ستة قرون من التاريخ .

وقد تعمدت ذكر (الدولة العثمانية) بدل (تركيا) لأنها هي الأدق والأصح فكلمة (تركيا) لم توجد إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، وبعد تكون الدولة العلمانية التركية المعاصرة .

وأخيراً فإني أرجو أن يكون هذا العمل نافعاً ، خاصة وأن الغرب ما زال يتحكم في السياسات العالمية ، والله الموفق وهو من وراء القصد .

لندن

٢٩/٦/١٤١٥ هـ

٢/١١/١٩٩٤ م

التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي

قال الأمير شكيب أرسلان متابعاً تعليقاته على موضوع (التعصب الأوربي) : « ولنأخذ انموذجات أخرى من كتاب : مئة مشروع لتقسيم تركيا .

قال الوزير (دجوفارا) : إن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوربيون للأتراك ، ويميلون أبداً من أجلها إلى حصرهم [١] في آسيا ، هي راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام ، ونقل[٢] عن (غودفروا كورت) كلاماً كتبه هذا في سنة ١٨٨٩ في كتاب عنوانه : (الصليب والهلال) قال فيه : « إن الإسلام قد عمل ما لم يقدر أن يعمله ، بل ما لم يجرؤ أن يعمله دين آخر وذلك بأن الصليب تغلب على كل شيء أمامه ، وجاء الإسلام أحياناً فتغلب عليه ، وكان الصليبيون يقولون في قتال الإسلام : هكذا يريد اللّه ، ونحن يمكننا أن نعيد اليوم العبارة نفسها ، وأن نحارب العدو الذي حاربه آباؤنا» .

وقال المسيو (دوفاريك) من علماء الحقوق : « إنه من الواجب القيام بحرب دينية يُستخلص بها القبر المقدس ، وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحي وحماية مجموع الدول العظام » .

---

١ - يعني إبعادهم عن أوربا .
٢ - أي دجوفارا .

ثم قال (دجوفارا) : إن المسلمين كانوا أرعبوا أوربا ، وخنعت لهم أسبانيا مع عظمتها ، وفي أواخر القرن الثاني عشر امتد سلطان العرب من الهند إلى الأطلانطيك ، وصارت حضارة بغداد والبصْرة أعلى وأرقى من حضارة (إكس لاشبل)[١] و (باريس) وكان الفرنج Frances تحت قيادة (شارل مارتل) الذين كسروا المسلمين في (بواتييه) وأنقذوا النصرانية ، فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون أوربا إلا تحت اسم بلاد الفرنج ، وكان أول من دعا الأوربيين إلى حرب صليبية هو البابا (سلفستر الثاني) ، وذلك سنة ألف واثنين ، ولم يوفق إلى تحقيق ما أراده ، ثم جاء البابا (غريغوريوس السابع) فاستنفر جميع ملوك أوربا لحرب دينية يَصْلونها الإسلام وذلك سنة (١٠٧٥) إلا أنها هذه المرة أيضاً لم تتحقق هذه الأمنية ، وتأخرت نحو عشرين سنة عن ذلك التاريخ ، ثم بدأت الحرب الصليبية ، فأخرت فتح الأتراك للقسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة وانتهت الحروب الصليبية سنة ١٢٧٠ إلى سنة ١٢٩٠ م بسقوط عكا ، وخسر المسيحيون عدا ما كانوا فتحوه من بلاد الإسلام ملكتين مسيحيتين : قبرص[٢] وأرمينيه ، ثم إن

---

١ - هي مدينة آخن من مدن ألمانيا .

٢ - تم فتح قبرص عام ٢٨ هـ في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي اللّه عنه ، وشهدت فتحها الصحابية الجليلة أم حرام بنت ملحان وتوفيت بها . وفي عهد الرشيد العباسي غزاها المسلمون بعد أن نقض أهلها العهد . ثم استولت عليها الدولة البيزنطية بعد منتصف القرن الثالث الهجري ثم أخذها ملك انكلترا (ريتشارد) قلب الأسد وأقطعها لـ : (جي دي لوزينان) فأنشأ فيها مملكة صليبية ، كانت تشن الغارات على =

الأتراك دخلوا إلى أوربا سنة ١٣٥٦ م بعبورهم مضيق (الدردنيل)، وافتتحوا (أدرنة) في سنة ١٣٦٠، وفي جميع هذه الأزمنة، ومن قبل أن يدخل الترك إلى أوربا، كان كُتّاب النصارى والمفكرون منهم لا يريدون أن يتعزّوا عن إخفاق الحروب الصليبية، ولا يفتأون يهيِّجون خواطر الشعوب الأوربية، ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الإسلام، ولا سيما عن فلسطين واشتهر من بين هؤلاء المحرضين: (مارينو)، (سانوتو)، و(غليوم دي نوغاري)، وكذلك الشعراء مثل بترارك، كانوا في مقدمة المحرضين على قتال المسلمين.

قال [1]: ولما سقطت عكا وصور، كتب البابا (نيقولا الرابع) كتاباً تاريخه ٢٣/٨/١٢٩١ إلى (فيليب لوبيل) ملك فرنسا، يُظهر له به أمله ويستنجده ليجمع كلمة ملوك النصارى، وينتقم من الإسلام، ولكن البابا مات قبل تحقيق أمله، وكان قد تلقى برنامجي حرب: أحدهما من ملك صقلية[2] (كارلوس الثاني)، والثاني من راهب يُقال له:

= سواحل الشام ومصر، وتنبه المماليك في مصر إلى خطورة الاسطول البحري، فجهزوا جيشاً قوياً بحرياً عام ٨٢٨ هـ وبدأت الحملات لاحتلال هذه الجزيزة إلى أن استولوا عليها عام ٨٢٩ ثم دخلت الجزيرة في حوزة الدولة العثمانية إلى أن تنازلت عنها للانجليز، بمقتضى اتفاق تم في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م، ثم أسلمها الانكليز لليونان ولكن المسلمين القبارصة رفضوا هذا الأمر واستقلوا بالجزء الشرقي منها.

انظر: أطلس تايرخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس / ٢٨٥ والدولة العلية / ٢٥٥.

١ - المؤلف: دجوفارا.

٢ - جزيرة في البحر المتوسط، افتتحها المسلمون عام ٢١٢ هـ في عهد زيادة الله من =

(فيدانس دوبادو) وكان برنامج (كارلوس الثاني) العدول عن قتال المسلمين بالسيف إلى مقاتلتهم بالتجارة[١] ، قال : لأنهم إذا زحف الأوربيون إلى بلادهم تركوهم يطئون السواحل ، ويعمل فيهم تأثير الإقليم فيضعفوا ، فكان الأولى قطع الطريق على متاجرهم ، وإعداد أساطيل لهذا المقصد وتوحيد القيادة ، ويسمى هذا المشروع في حرب الإسلام بمشروع (كارلوس الثاني) ملك صقلية ، أما مشروع (فيدانس) فلم يكن مقتصراً على حرب تجارية ، بل كان يشير بتجريد جيش يطأ البر ، ويكون وراءه أسطول من ثلاثين إلي خمسين بارجة حربية ، وأن تنزل الجنود في سواحل أنطاكية ثم يجعل الصليبيون أنطاكية معتصماً لهم ، وقاعدة لغزواتهم ، وقد انتقد بعضهم هذا المشروع وحكموا باستحالته .

وفي سنة ١٣٠١[٢] جدّ برنامج آخر صاحبه (كارلوس دوفالوا) أخو

= بني الأغلب ، وقد تولى فتحها الأمير الفقيه القاضي أسد بن الفرات . وبقيت بأيدي المسلمين ، منارة للعلم والحضارة إلى أن اختلف أهلها ووقعت الفتنة خاصة عندما تولاها الفاطميون عام ٣٢٩ وظلموا أهلها ظلماً شنيعاً ، فاستعان بعضهم بالنصارى النورمانيين ، فاستولى عليها الملك (روجار الأول) عام ٤٨٤ ، وفي عام ٥٦٢ قضي على البقية الباقية من المسلمين .

انظر : أبوعبدالله الحميري / الروض المعطار / ٣٦٦ ، وأطلس تاريخ الإسلام / ٢٩٤ .

١ - قارن ما يفعله الغرب اليوم من الحصارات الاقتصادية .

٢ - هذه المشاريع وضعت قبل أن تفتح الدولة العثمانية أجزاء من أوربا ، وقبل أن تصبح خطراً على أوربا ، فهي مشاريع موجهة ضد المسلمين بشكل عام ، وكانت بدايات الدولة العثمانية ٦٩٨ هـ الموافق لـ ١٢٩٩ م .

(فيليب لوبيل) ملك فرنسا ، وكان هذا الأمير قد تزوج كاترينا ابنة (فيليب دوكوتنيه) آخر ملوك اللاتين في القسطنطينة - لأنه كما لا يخفى كان اللاتين غلبوا الروم على القسطنطينية وملكوها مدة خمسين سنة - فتعلق أمل (كارلوس) المذكور بالاستيلاء على مملكة حميّه ، وظاهَرَه على ذلك البابا (بونيغاس الثامن) وبعض ملوك النصرانية ، ووعدته جمهورية البندقية بقوة بحرية ، إلا أن هذا المشروع أصيب أيضاً بالفشل وكانت معداته ضئيلة بالنسبة إلى خطره ، وأكثر من حرض عليه فيليب لوبيل ملك فرنسا الذي كثيراً ما فكر بفتح فلسطين . ثم إن البابا (أكليمانضوس) الخامس تقدم إلى رئيس نظام الفرسان الهيكليين[1] بترتيب برنامج لمحاربة المسلمين ، وذلك سنة ١٣٠٧ ، وكان الرئيس المذكور يدعى (جاك دومموليه) فأشار هذا بجمع كلمة النصرانية على قتال المسلمين ، وأنه لا يجب أن يقل الجيش عن خمسة وستين ألف مقاتل ، وأن يكون معززاً بأسطول يرسو في مياه قبرص تحت قيادة الأميرال (روجر دولوريا) الأرغوني [2] .

---

١ - فرسان المعبد أو فرسان الهيكل ، وفي كتب التاريخ الإسلامي يسمونهم بـ(الداوية) جمعية سرية من متعصبي الصليبيين ، عاهدوا أنفسهم بأن يحموا الحملات الصليبية واستخدموا جزر البحر المتوسط كقبرص وردوس ومالطة أوكاراً لهم لشن الحملات على المسلمين .

انظر : محمد عبدالله عنان / تاريخ الجمعيات السرية / ٥٨ .

٢ - الأرغون : إحدى الممالك النصرانية في الشمال الشرقي من أسبانيا ، اتحدت مع مملكة قشتالة لمحاربة المسلمين وإخراجهم من الأندلس .

المشـــروع الرابـــع

ثم جَدَّ مشـروع رابع صـاحبـه « بيـير دبوا » وهو رجل من مـدينة (كـوتنس) ولد بين سنة ١٢٥٠ و ١٢٦٠ واشتـهـر سنة ١٣٠٠ ، وقـدم برنامجاً إلى البابا (اكليما نضوس) الخامس لأجل استرداد الأراضي المقـدسة ، وقـدم برنامجاً آخـر إلى (فيليب لوبيل) ملك فـرنسـا في الموضوع نفسه ، وحرضه على أن يؤسس مملكة في الشرق ، يضع على رأسهـا ثاني أولاده وكـان من جملة وصـاياه أن تتـوحـد كلمـة الملوك الكاثوليكيين وأن يحملوا الروم الأرثوذكسيين في الشرق على الخضوع للكنيسة الرومانية ، وأن يكون الجميع يداً واحدة في وجه الإسلام ، وقـال إنه يجب تجهـيز أربعـة جيوش ، ثلاثة مـهـا تذهب بحـراً إلى فلسطين، والرابع يزحف براً .

وكان من رأيه أنه بعد استتباب الفتح يصير (كارلوس دوفالوا) ملكاً على جـمـيع المملكة البـيزنطيـة مـضـمـومـة إلى بلاد المجـر والفـلاخ والبغدان[١] ، وهكذا لـو تم مـا أراده لكـانت مملكة رومـانيـا الحـاليـة من جملة ملحقات فـرنسا . وكـان من جملة ما أشار به أن يكون البابا هو

---

١ - الفلاخ : كان الأتراك يسمونها (أفلاق) وهي إمارة من إمارات الدانوب ، ظهرت للوجود في القرن الثالث عشر وأصبحت منذ سنة ١٣٩٦م تابعة للدولة العثمانية ، واستقلت سنة ١٨٥٦ واتحدت مع مولدافيا (البغدان) سنة ١٨٥٨م وكونتا معاً الدولة الرومانية الحديثة إضافة لجزء من (ترانسلفانيا) ، وسيرد ذكر الأفلاخ والبغدان كثيراً في هذا الكتاب . انظر : محمد فريد بك / تاريخ الدولة العلية / ١٣١ .

المصلح بين الأمراء المسيحيين وأن يجعل مجمعاً عاماً وخزانة خاصة بالأرض المقدسه ، يكون لها شعبة في كل كنيسة مسيحية .

وقال المؤرخ الشهير (البير سوريل) : إنه كان في برنامج (بيير دوبوا) هذا كثير من الخيال ، ولكن هذا الخيال كان في ذلك الوقت يحوم على خواطر الجميع ، ونقل (دجوفارا) في أثناء كلامه على مشروع دوبوا أن البابا (غريغوريوس) الحادي عشر أنذر امبراطور بيزنطة بأنه لن يساعده على المسلمين إن لم يرجع إلى الكنيسة الرومانية، ونقل أيضاً أن البابا (سيلفويوس) كتب إلى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٦٣م ويدعوه أن يتنصر ويقول له : « بقليل من الماء على بدنك تتعمد وتصير نصرانياً خادماً للإنجيل ، فإن فعلت هذا لا يكون على وجه الأرض ملك يمكنه أن يفوقك في المجد والإقتدار »[١] .

المشـــروع الخامـــس

ثم مشروع (ريموندلول) سنة ١٣٠٦م وهو فيلسوف مسيحي صاحب طريقة خاصة به ، ولد في (بالما) من جزيرة ميورقة[٢] ، وقتله العرب في تونس سنة ١٣١٥م ، وله مؤلفات كثيرة في اللاتينية ، وقد كان من الدعاة إلى الحرب الصليبية ، وله في ذلك تأليف موجودة نسخته الأصلية بخط المؤلف في المكتبة الوطنية في باريس تحت نمرة

---

١ - ما أسمج هذه الرسالة ، وما أقل عقول هؤلاء القسس .

٢ - من جزر البحر المتوسط التابعة الآن لأسبانيا .

٣٣٢٣ ، وقد استحسن المجمع العام المنعقد في (ڤيان) [١] سنة ١٣١١م هذا الكتاب ، وأوجب العمل به ، وقرر القيام بصليبية جديدة، واجتباء العُشْر من الحاصلات [٢] لأجل هذه الغزاة الصليبية ، وذلك لمدة ست سنوات ، ولم يقل (ريموندلول) شيئاً مما يتعلق بكيفية تقسيم بلاد الإسلام بين الفاتحين الكاثوليك ، ولكنه ذهب إلى وجوب تعلم اللغات الشرقية [٣] ، لا سيما اللغة العربية ، لتسهيل هذه الفتوحات ، ونشر الدين الكاثوليكي بالوعظ والإرشاد .

وقال (سان مارك جيراردان) إن (ريموندلول) كان يرى الأولى هداية غير المؤمنين [٤] ، وهداية المسيحين المنشقين إلى الدين الكاثوليكي بدلاً من قهرهم بالسيف ، هذا وكان (ريموند) يقرح تجريدتين [٥] صليبيتين، إحداهما تزحف إلى مراكش فتونس ، فطرابلس ، والثانية تزحف إلى القسطنطينية ومنها إلى سورية . وقد اختلفت برامج هؤلاء الخياليين في قضية الزحف على بلاد الإسلام ، فكان (غليوم دادان) الدومنيكاني [٦] يرى السير من طريق القسطنطينية وقد ألف بين سنة

---

١ - منطقة جنوب فرنسا بالقرب من (ليون) الحالية .

٢ - أي جباية العشر من الإنتاج الزراعي .

٣ - كأن هذا تمهيد لعملية الإستشراق والمستشرقين .

٤ - بدينهم النصراني المحرف .

٥ - مصطلحات إسلامية يستعملها الأمير شكيب هنا ، والتجريدة فرقة من الجيش أوسرية .

٦ - طريقة دينية نصرانية ترى رفع مستوى التدين عند الفرد .

١٣١٠م وسنة ١٣١٤م كتاباً سماه « كيفية استئصال المسلمين » وأشار فيه بإيجاد اسطول مسيحي في خليج فارس ، وأما (بروكارد) فأشار بالزحف من إيطاليا إلى بلاد الصرب ومنها إلى الشرق ، وأما (سانتو) فكان يرى وجوب الحمل على بلاد الإسلام من البحر ، ويدخل في برنامج (ريموندلول) الزحف على بلاد الأندلس براً وبحراً ، وبعد الإستيلاء عليها ، احتلال مدينة سبتة[1] في أفريقية ، ثم مدينة تونس وذلك لأجل تسهيل الإستيلاء على مصر والبلاد المقدسة ، وبينما يكون جانب من القوة الصليبية مُحاصراً مصر ، يكون الجانب الآخر زاحفاً من القسطنطينية إلى سورية ومنها إلى جزيرة العرب[2] .

فهذه مشروعات خمسة لخصناها تلخيصاً من كتاب « مئة مشروع لتقسيم تركيا »

---

١ - ما تزال محتلة من قبل الأسبان حتى يومنا هذا ، وهي مدينة مغربية على ساحل البحر المتوسط .

٢ - هذا يؤيد ما قلناه « أن الهدف هو بلاد الإسلام كلها وليس أملاك الدولة العثمانية فقط ، لأن قلب جزيرة العرب لم يكن تابعاً للدولة العثمانية .

المشروع السادس

وهو مشروع (مارينو سانوتو) وهو رجل ينتسب إلى إحدى الأسر النبيلة في البندقية ، ولد سنة ١٢٦٠م ، وطاف في بلاد الشرق مثل المورة[١] وقبرص وأرمينيا ، ورودس[٢] والإسكندرية . وقد بدأ كتابه في الحث على محاربة المسلمين سنة ١٣٠٦م ولكنه لم يقدمه إلى البابا (يوحنا الثاني والعشرين) إلا سنة ١٣٢١م وقد ذهب في كتابه لأجل نجاح المشروع إلى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية[٣] ، وفي ذلك يقول الفيلسوف (أرنست رينان) : « إن سانوتو كان يجهل درجة الخلاف بين الكنيستين ، ولا يعلم أن الروم لم يكن يصعب عليهم الخضوع للعمامة[٤] كما يصعب عليهم الخضوع للتاج البابوي » ، ولم يكن سانوتو يشير باستيلاء اللاتين على القسطنطينية ، بل كان يرى بقاء بيزانطة للروم ، وكان من رأيه أن تكون سلطنة البقاع المقدسة لفرنسا ،

---

١ - شبه جزيرة وهي الجزء الجنوبي من بلاد اليونان .

٢ - جزيرة صغيرة في البحر المتوسط ، تقع عند مدخل بحر ايجه جنوب غربي تركيا ، فتحت في عام ٢٨ هـ في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - وأعيد إخضاعها عام ٦١ هـ ، ثم استولى عليها البيزنطيون والصليبيون وصارت أيام الحروب الصليبية قاعدة لفرسان القديس يوحنا ، شن عليها السلطان المملوكي (بارسباي) عدة حملات ، ثم فتحها السلطان سليمان العثماني عام ١٥٢٢م وغزاها الإيطاليون عام ١٩١٢م ، وهي الآن بيد اليونان .

٣ - انظر تأكيد أصحاب المشاريع على وحدة الكنيستين لمجابهة العالم الإسلامي بينما ترى أن موضوع الوحدة الإسلامية - بين الدعاة وليس بين الدول - مايزال ضعيفاً .

٤ - أي للمسلمين .

وكان يحث كثيراً على حصر الديار المصرية ، ويعتقد أنها إذا حوصرت مدة ثلاث سنوات فلا بد من الإستيلاء عليها ، وأنه إذا استولى المسيحيون على مصر ، فلا بد من أن يستولوا على بيت المقدس[١] وكان أكثر مقصد سانوتو تأمين الطرق الإقتصادية أمام بلدة البندقية[٢] وتمكينها من الإستيلاء الإقتصادي على الشرق .

قال دجوفارا : « إن إنكلترا بعد سبعة قرون من زمان سانوتو حققت لنفسها الأمل الذي كان يحلم به سانوتو » .

---

١ - هذه الأهمية لمصر وموقعها من العالم الإسلامي جعلت الغرب والإنكليز بشكل خاص ، يركزون على تغريبها وإبعادها عن جذورها الإسلامية العربية ، بمناهج (دنلوب) و (طه حسين وأحمد لطفي السيد) ومازالوا بها حتى أخرجوها من الصراع مع اليهود بمعاهدة (كامب ديفيد) .

٢ - المدينة المشهورة في إيطاليا ، وقد كانت إمارة مستقلة .

المشروع السابع

المنسوب إلى (هايتون) أو (هيتوم) سنة ١٣٠٧م وكان (هيتوم) أميراً أرمنياً في (كرشي) وهي ثغر بحري بإزاء جزيرة قبرص ، وكان عمه ملكاً على أرمينية[١] ، فاستولى المسلمون على بلاده ، ولجأ هيتوم إلى البابا أكليمانضوس الخامس وأقام بمدينة بواتيه[٢] حيث مات سنة ١٣٠٨م ، وكتب كتاباً باللاتينية ، ثم ترجم هذا الكتاب سنة ١٣٥١م إلى الإفرنسية وأشار في كتابه إلى وجوب فتح بيت المقدس ، وبيّن الطريق التي بزعمه يتيسر بها هذا الفتح ، ولكن الوقت الذي كتب فيه كتابه هذا لم يكن الوقت الذي يقبل فيه الناس رأياً كهذا الرأي ، فقد كانوا في فرنسا تحت تأثير فاجعة القديس لويس ملك فرنسا الذي كان قد أُسر في دمياط[٣] ثم عاد فقُتل في تونس ، وكان برنامج هيتوم تجريد

---

١ - أرمينية : مملكة قديمة في جنوب شرقي الأناضول ، كانت عاصمتها (آني) ، وحكمها إقطاعيون من آل بقرادوني ، ثم ضمت إلى تركيا وانحصر الأرمن أخيراً في مقاطعة أرمينيا التي كانت جزءاً من الإتحاد السوفييتي سابقاً .

٢ - مدينة في جنوب فرنسا ، وهي التي جرت فيها المعركة المشهورة بين المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي والفرنجة بقيادة شال مارتل ، انتصر المسلمون في بدايتها ثم صارت الدائرة عليهم ، وكانت آخر المحاولات الكبرى لفتح فرنسا ، ولعل من كره هذا الأرمني للمسلمين أن استقر في هذه المدينة .

٣ - مدينة في مصر ، احتلها ملك فرنسا في البداية ، وبعد زحفه إلى المنصورة التقى بجيش السلطان الصالح أيوب . وقد هُزم الصليبيون في هذه المعركة وأُسر الملك لويس ، ثم افتدى نفسه ، وبعد أن رجع إلى فرنسا هيأ حملة جديدة إلى تونس فلم يفلح أيضاً ، وقد مرض في تونس ومات بها ولم يقتل كما ذكر المؤلف ، وفشلت حملته أيضاً . انظر : د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام / ٢٧٠ .

جيش على شمالي أفريقية ، وجيش آخر يزحف إلى سورية عن طريق القسطنطينية وجيش آخر يزحف بحراً ، وأكثر ما كان يهُم هيتوم هو فتح بلاده أرمينية ، وكان يرى أن المغول يمالئون الصليبين على المسلمين ، وأنه إذا زحفوا إلى حلب فسيضطر سلطان مصر إلى نجدة حلب ، فيخرج من بلاده ويخلوا الجو للإفرنج فيمكنهم إحتلال طرابلس الغرب ، وكان يشير بعقد محالفة بين المسيحين والمغول [1] لكن على شرط أن لا يتلاقى الجيشان من الفريقين ، لئلا يحدث بينهما قتال ، بل يزحف المغول إلى دمشق ويزحف الصليبيون من طريق الساحل إلى القدس ، وبَعْد الإستيلاء على بيت المقدس يزحفون إلى مصر ولم يكن نجاح مشروع هيتوم أعظم حظاً من مشروعات الآخرين .

---

١ - بهذه المناسبة نقدم نبذة عن التحالفات بين النصارى والمغول ، أو بينهم وبين الصفويين ضد العثمانيين :
- في سنة ١٢٤٧م أنفذ البابا أنوسنت الرابع سفارة برئاسة راهب دومينكاني اسمه (اسكلين) فمضى حيث التقى بالقائد المغولي (بيجو) فأبدى هذا الأخير استعداده للتحالف ضد الأيوبيين وأرسل مبعوثَيْن من قبله هما : (أيبك) و (سركيس) فأقاما في روما سنة ثم عادا سنة ١٢٤٨م ، ثم عاودت السفارة من قبل لويس التاسع ملك فرنسا ، وفي سنة ١٢٥٤م وصل مندوب آخر للويس التاسع ، فاستقبل من قبل (مونكو) خان المغول أحسن استقبال .
وقد أدرك هولاكو عام ١٢٦٠م ما تتعرض له سيادة المغول على سلطنة السلاجقة في الأناضول من قبل الترك والمماليك فحرص على التحالف مع البيزنطيين .
- وفي سنة ١٢٦٧ اتفق ملك أراجون والبابا (كلمنت) الرابع على أن يبعثا بسفارة إلى (أبغا) خان فارس تطلب منه الإشتراك في محالفة عسكرية . =

المشروع الثامن

وهو المنسوب إلى (غليوم دونوغاري) وتاريخه سنة ١٣١٠م ، وكان نوغاري من رجال فيليب لوبل ملك فرنسا ، وكان هذا الملك شديد الإعتماد عليه ، ولذلك كان يشير بتولية فيليب لوبل قيادة الحملة الصليبية ، وأن تجبى الأموال اللازمة لتلك الحرب وتوضع بين يديه ، ولذلك أساء بعضهم الظن في فيليب لوبل واعتقدوا أنه إنما أراد بهذه الصليبية جمع الأموال لا إعلاء كلمة الصليب ، وكان مما أشار به نوغاري محالفة سلاطين المغول ، ومحالفة امبراطور الروم في بيزنطة .

= وفي سنة ١٢٨٥م أرسل أرغون بن أبغا إلى البابا هونوريوس الرابع يقترح عليه توجيه حملة مشتركة لقتال المماليك .

انظر : د. السيد الباز العريني / المغول / ١٨٩ - ٢٧٨ .

- وفي عام ١٥٢٤م رغب حاكم الدولة الصفوية في إيران (طهماسب) في التحالف مع القوى الأوروبية لحصر العثمانيين فأرسل إلى شرلكان سفيراً يطلب منه التحالف . انظر : محمد حرب : العثمانيون / ٩٦ .

ومن الملفت للنظر أنه أثناء حصار هولاكو لمدينة ميافارقين ساندته وحدات من الأرمن والكرج (الجورجيين) المغول / ٢٢٤ .

المشروع التاسع

المنسوب إلى (غليوم دادام) ، وتاريخه سنة ١٣١١م ، وكان المذكور راهباً دومنيكياً ، قضى معظم حياته يعظ بالإنجيل في بلاد الشرق ، وذهب إلى الحبشة والهند ، وكانت آراؤه في الموضوع غريبة . فكان يشير بأن الصليبين يأخذون القسطنطينية في طريقهم ، ويحولونها مملكة لاتينية ، وكان يشير أيضاً بعمارة أسطول في بحر فارس لمنع تجارة النهد مع مصر [١] ، وحمل حملة شديدة على المسيحيين الذين كانوا يتجرون مع المسلمين ، لا سيما الجنوية [٢] الذين كانوا يبيعون الرقيق من أهل مصر ، فكان في ذلك القطر جيش من المماليك نحو أربعين ألفاً أكثرهم بلغار ويونان ومجر وغيرهم ، وقال : إنه يجب على البابا إصدار حرم [٣] بحق كل المسيحيين الذين لهم علاقة تجارية مع المسلمين ، وقال بوجوب عقد محالفة مع الكرج [٤] ومع ملوك العجم [٥] وأن يعهد

---

١ - نفذ البرتغاليون والأسبان في القرن السادس عشر ما أشار به صاحب هذا المشروع .

٢ - أي أهل مدينة جنوة الإيطالية .

٣ - هكذا في المطبوع من (حاضر العالم الإسلامي) وأظنه يعني : حرمان .

٤ - هي ما تسمى الآن جورجيا التي انفصلت عن الإتحاد السوفيتي ، وكان المسلمون في عهد الفتوحات قد وصلوا إلى تلك البلاد واستقروا في عاصمتها (تفليس) وبقيت بين مد وجزر ، بين المسلمين والأرمن والكرج إلى أن التحقت بروسيا عام ١٨٠٠ .

٥ - لا شك أن هؤلاء يعرفون من أين تؤكل الكتف ، يعرفون أن ملوك العجم (فارس) عندهم الإستعداد للتحالف مع الصليبيين إذا كان موجهاً ضد دولة سنية مثل الدولة العثمانية .

بالسيطرة على بحر اليونان المسمى ببحر الأرخبيل إلى أولاد (ذكريا) الجنويين الذين كانوا يملكون جزيرة (شيو) وألحّ غليوم هذا كثيراً بفتح القسطنطينية قائلاً : « إنها مفتاح كل المشرق » وقال : إن الروم لم يكونوا أقل عداء للاتين من المسلمين فيجب خضد شوكتهم ، وقد اهتم صاحب هذا المشروع كثيراً بالمسألة الإقتصادية[1] نظير سانوتو ، وقال : إنه يجب قطع تجارة مصر مع الشرق الأقصى بوضع قوة صليبية في بحر الهند وفي عدن ، وقد كان هذا الأمر في ذلك الوقت ضرباً من المُحال .

المشروع العاشر

وهو مشروع (هنري دي لوزنيان) ملك قبرص ، وتاريخه سنة ١٣١١م ، وقد تقدم هذا المشروع إلى مجمع (ڤيان) مع مشروع نوغاري المتقدم الذكر ، وكان هذا الملك يشير بتجهيز طليعة مسيحية قوامها خمسة عشر أو عشرون سفينة حربية تواصل غاراتها البحرية على مصر إلى أن تتمكن من تخريبها ، وبعد ذلك يقدُم الجيش الكبير فيطأ أرض مصر ويستولي عليها ، وإذا استولى الصليبيون على مصر هان عليهم فتح سورية وقد أشار الملك المذكور بأن يبدأ الصليبيون باحتلال قبرص وأن يتجنبوا إحتلال أرمينية - يريد بأرمينيه بلاد كيليكيا واسكندرونة - وذلك بقوله : إن مناخ تلك البلاد شاق على الأوربيين ، وأن الزحف منها إلى سورية في غاية الصعوبة ، وقد كان لتقرير ملك

---

١ - ولايزالون يُحْكمون السيطرة على العالم المتخلف بالإقتصاد .

قبرص هذا تأثير عظيم في مجمع (ڤيان) فأعلن هذا المجمع الحرب الصليبية في ١٩ ديسمبر ١٣١٢م ، وبينما هم يجهزون الجيوش إذ مات فيليب لوبل ملك فرنسا ، والبابا أكليمانضوس ، فتوقف العمل ، ثم قام الأساقفة يحرضون شارل لوبل على إتمام المشروع ، فعارض في ذلك دوق بورغونيه[1] ، وبقي الأخذ والرد في هذه المسألة إلى سنة ١٣٣٣م.

المشروع الحادي عشر

المنسوب إلى (بروكارد) وتاريخه ١٣٣٢م ، وكان بروكارد هذا راهباً ألمانياً من الرهبان الدمينيكيين ، فقدم تقريراً إلى ملك فرنسا يشير به بحرب صليبية ، ويبين الطرق الموافقة لها ، ولم يكن يرى أن تكون الحملة بحرية ولا كان أيضاً يستحسن الزحف من جبل طارق وشمالي أفريقية إلى مصر ، وكان يرى هذه الطريق طويلة شاقة ، وإنما كان يجد الطريق الحسنى من خليج (أوطرانطو)[2] إلى كورفو إلى البلقان ، ويرى أحسن من ذلك الطريق التي اتبعها بطرس الناسك ، وهي طريق ألمانيا إلى بلاد المجر إلى البلقان إلى القسطنطينية ، ولم يكن بروكارد يرضى بمهادنة ملك الصرب وامبراطور الروم في بيزانطيه ، بل كان يقول أنه لا يجوز الثقة بهما ، لأن نصارى تلك البلاد منشقون على الكنيسة ، ويجب فتح بلادهم كما يجب فتح بلاد المسلمين ، وكان

---

١ - بورغونيا : منطقة تقع شرقي فرنسا وقاعدتها مدينة ديجون .
٢ - منطقة في أقصى جنوب شرقي ايطاليا ، فتحها الأتراك لمدة قصيرة عام ١٤٨٠ .

يقول إن الترك يدور بينهم كلام من قبيل الجفر[1] على أنه لا بد أن يفتح بلادهم ملك إفرنجي ، وأن هذا مما يسهل نجاح هذه الغزاة . ولم يكن في مشروع بروكارد شيء من الملاحظات الإقتصادية بل كانت جميع الأغراض التي بنى كلامه عليها حربية سياسية ولذلك كان لتقريره وقع عظيم على المجلس الملوكي في فرنسا وبعد أن قتلوا المسألة بحثاً رجحوا طريق البحر على الطريق التي اختارها بروكارد بحجة أن هذه طريق خطرة ، ثم عرضت جمهورية البندقية عقد عصبة ضد الأتراك ، ودخل في هذا التحالف امبراطور القسطنطينية وفرسان رودس[2] ، وانعقد الحلف بين فرنسا والبندقية بحضور البابا يوحنا الثاني والعشرين في (آفينيون)[3] وأعلن[4] البابا فيليب السادس المسمى دوفالوا قائداً للزحفة

---

١ - كتاب فيه نبوءات مستقبلية ، ليس لها أساس من الصحة يعتمد عليه الشيعة وينسبونه إلى جعفر الصادق وهو منه براء ، وكلمة جفر مأخوذة من أن هذا الكتاب - كما يدّعون - مكتوب على جلد ماعز صغير .

٢ - هم فرسان القديس يوحنا ، وهي منظمة عسكرية دينية بدأت مع مستوصف القديس يوحنا في القدس في القرن الحادي عشر لمساعدة الحجاج العجزة والفقراء الذين يزورون البلاد المقدسة ، اعترفت البابوية بها عام ١١١٣م وساعدت الصليبيين في غزوهم حتى طردت من فلسطين عام ١٢٩١ م ، احتلت هذه المنظمة جزيرة رودس عام ١٣١٠ م وازدادت قوتهم وثراءهم حتى طردهم العثمانيون عام ١٥٢٢م ، فانتقلوا إلى مالطة ، حيث حاربهم نابليون عام ١٧٩٨ م فالتجؤا إلى روسيا . تطورت عام ١٨٧٩ م كمؤسسة القديس يوحنا الخيرية ، ويشتهر فرعها الإنجليزي بأعمال الإسعاف .

٣ - منطقة جنوب فرنسا .

٤ - أي هذا التحالف .

الصليبية ، واكتتب للذهاب ثلاثمائة ألف مقاتل ، وكانت السفن التي في المراسي قد تهيأت لنقل ستين ألف مقاتل دفعة واحدة ، وبينما هم على قدم الزحف إذ نشبت الحرب بين انكلترا وفرنسا ، فتوقف كل شيء ، ثم جاءت الأخبار بتهافت سلطنة بيزانطة من كل جهة ، وتداعيها إلى السقوط ، فخارت العزائم . وفي سنة ١٣٨٠م وسنة ١٣٩٠م عقدت البندقية وجنوة وغيرهما من الجمهوريات البحرية معاهدات تجارية مع الترك ، وفي سنة ١٣٨٩م أحرز الترك ذلك النصر العظيم في (قوصوه)[١] ثم في سنة ١٣٩٦م انتصر الترك انتصاراً باهراً في (نيقو بوليس)[٢] على الجيوش المجرية والإفرنسية ، وأُخذ كثير من

---

١ - قبل هذه المعركة المشهورة ، قام تحالف صليبي بين ملك الصرب وأمراء ألبانيا ضد العثمانيين ، والتقى الطرفان في مكان يسمى (قوصوه) انتصر فيه العثمانيون انتصاراً باهراً بقيادة السلطان مراد بن أورخان ، وهُزم فيه ملك الصرب (لازار) وجرح وأسر وبعد هذه المعركة انتهى تماماً استقلال الصرب . انظر : محمدحرب/ العثمانيون/ ١٩ . قلت : مكان المعركة هو السهل المسمى كوسوفو ، وهذه المنطقة غالبية سكانها مسلمون ألبان ، ويتعرضون الآن لضغوط شديدة من الصرب الذين يريدون الثأر لمعركة قوصوه .

٢ - مدينة أسسها الإمبراطور الروماني تراجانوس ، وتقع في شمال بلغاريا على حدود رومانيا ، وهذه المعركة كانت في عهد السلطان بايزيد الأول الملقب بـ(الصاعقة) ، وكان ملك المجر قد حشد الحشود واستنجد بأوربا ، فأرسلت فرنسا أشرافها ، وكذلك إمارة (بافاريا) جنوب ألمانيا ، والنمسا ، وكان نتيجتها انتصار العثمانيين ، وقد أُسر رئيس الحملة الفرنسية الكونت دي نيفر ثم أُطلق سراحه بعد دفع الفداء ، وقال له السلطان بايزيد : إنك أقسمت ألا تعود لمحاربتي ، ولكن إني أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين ، فأنت في حل من الرجوع لمحاربتي ، إذ لا شيء أحب إلي من محاربة جميع مسيحي أوربا والإنتصار عليهم .

أمراء الفرنسيس وفرسانهم أسرى ، ولم يبق في القرن الرابع عشر محل لحملات صليبية ، واستمر امبراطور القسطنطينية يرسل بالصريخ إلى أوربا ، فأرسل إلى كارلوس الرابع ملك فرنسا يستعديه على الأتراك ، وأعلن البابا غريغوريوس الثاني عشر الحرب الصليبية على المسلمين في ٩ نوفمبر ١٤٠٧م إلا أن الترك استولوا على القسطنطينية وقبرص ، وازدادت الآمال خيبة ، وآل الأمر إلى أن (توما باليولوغ)[١] باع من ملك فرنسا كارلوس السابع لقب امبراطور المشرق ، ولكن لم ينفع هذا شيئاً ، ولما نشبت الحرب بين ملك فرنسا المذكور ، وبين البابا اسكندر السادس اضطر البابا إلى عقد معاهدة مع السلطان بايزيد العثماني ضد ملك فرنسا الذي كان ينوي فتح الأرض المقدسة .

المشـروع الثانـي عشـر

وهو منسوب إلى (برتراندون دي لابروكيار) وتاريخه سنة ١٤٣٢ وكان هذا الرجل من أخصّاء « فيليب لوبون » دوق بورغونيا ، أرسله الدوق إلى المشرق رائداً لما كان في نفسه من القيام بحرب صليبية ، فذهب إلى القدس سنة ١٤٣٢ ، وعاد إلى فرنسا من طريق البر ، فمر بدمشق وأنطاكيه وبرسا وغاليبولي والقسطنطينية وأدرنة[٢] وفيلبه ، وصوفيا ، وبلغراد وفيينا ، ووصل إلى بلاط سيده دوق بورغوينا في

---

١ - ملك بيزنطة .

٢ - عاصمة الدولة العثمانية قبل فتح القسطنطينية .

سنة ١٤٣٣م وهو باللباس الشرقي ، وعلى جواد كان اشتراه في دمشق، وقد كتب رحلته هذه بلسان ذلك الوقت ونقحها باللسان الإفرنسي الحديث المسيو (لوغران دوسي) ونشرت سنة ١٨٩٢م ، ونسختها الأصلية في المكتبة الوطنيه بباريس ، ومن رأي (دولابروكيار) أن الملك المسيحي الذي سيحارب المسلمين لا ينبغي له أن يفكر بمجد ، ولا بحسن أحدوثة ، وإنما ينبغي أن يكون عمله مجرداً للّه ، وأنه لا يوافق أن تكون أرزاق الجيش الصليبي من النهب والغصب ، وإنما يؤدون ثمن الأقوات كلها إلى من يبيعهم إياها إلى أن يدخلوا في بلاد الأتراك[1] ، ومن رأيه أن البابا يقدر أن يقوم بنفقات الحملة الصليبية ، وقد تكلم (دولابروكيار) عن الروم ، فطعن فيهم وطعن في المجر أكثر مما طعن في الأروام ، وقال إنه يأمن إلى تركي أكثر مما يأمن إلى مجري، ولما وصل إلى (غَلَطة)[2] في القسطنطينية تلاقى مع (فورلينو) معتمد دوق ميلانو في الشرق، وذهبا معاً إلى السلطان مراد الثاني في أدرنة لأجل تبليغه رسالة من قبل دوق ميلانو معناها أنه يأمل من السلطان أن يتخلى للامبراطور (سيجيسموند) عن بلاد المجر والبغدان[3] والبلغار وبوسنة وألبانيا ، فأجابهما السلطان قائلاً : « سلما

---

١ - يعني أنهم إذا دخلوا بلاد الأتراك ، فلا حرج عليهم في النهب والسلب ؟! .

٢ - ضاحية من ضواحي القسطنطينية .

٣ - سلالة بوغدان حكمت إقليم مولدافيا ، فسمي الإقليم باسمها ، وقد خضع هذا الإقليم مع الأفلاخ للدولة العثمانية مدة طويلة ، ثم شكلا بعدئذ مع جزء من رانسلفانيا الدولة الرومانية الحديثة . انظر : موسوعة السياسة ٨٥٦/٢ .

على أخي[1] دوق ميلانو ، وقولا له إن طلبه هذا غير معقول ، لا سيما أنه ما وجد الامبراطور أمامي في معركة إلا انهزم أو لاذ بالفرار » .

المشروع الثالث عشر

وهو المنسوب إلى (فيليب لوبون) دوق بورغونيا ، وتاريخه سنة ١٤٧٥م ، وهذا الدوق كان ينوي دائماً تجريد حملة صليبية على السلطنة العثمانية قبل فتحها للقسطنطينية وبعده ، وكان الامبراطور يوحنا باليلوغ صاحب هذه البلدة استصرخه سنة ١٤٤٢ م ، فجهز اسطولاً عاث ونهب وعمل أعمالاً قرصانية ، إلا أنه لم يقدر على شيء يذكر ، ولما سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك نذر الدوق أن يزحف بنفسه لحرب الترك ، وكام مراده أن يقصد القسطنطينية رأساً زاعماً أنه يجب قطع جذع الشجرة قبل أغصانها ، وكان يبني آماله على الأمم المسيحية التي في البلقان ، وبعد أن رسموا له خطة السير ، وعيّن هو القواد ، وبدأ التجهيز ، ووعده لويس الحادي عشر ملك فرنسا بعشرة آلاف مقاتل لهذه الصليبية ، جدّت عوائق منعته من إتمام عمله ، ومات البابا بيوس الثاني الذي كان ظهيراً له في هذه النية . وفي هذه المدة كان الأتراك يسيرون من فتح إلى فتح في شبه جزيرة البلقان ، حتى استصفوها كلها ، وبقيت في أيديهم بعد ذلك أربعمائة وستين سنة .

---

١ - لا أدري من أين جاءت هذه الأخوة ! .

ولهذا لا نجد في القرن الخامس عشر مشروعات صليبية إلا قليلاً ، وما استؤنفت هذه المشروعات إلا في أواخر القرن السادس عشر بعد واقعة (ليبانت)[١] البحرية الشهيرة ، التي انكسرت فيها شوكة الأتراك وكان من أواخر الدعاة إلى الصليبية الراهب (كاسبسترانو) الذي حضر حرب بلغراد سنة ١٤٥٦م ، وطاف في اسبانيا وفرنسا وألمانيا وبولونيا وبلاد المجر داعياً إلى الحرب المقدسة ومعه صليب وراية أعطاه إياهما البابا مع صورة القديس برناردينو ، ومات هذا الراهب الصليبي سنة ١٤٥٦م بعد واقعة بلغراد بثلاثة أشهر .

المشروع الرابع عشر [٢]

المنسوب إلى كارلس الثامن ملك فرنسا وتاريخه سنة ١٤٥٩م ، وقد كان هذا الملك يفكر في استخلاص بلاد اليونان من أيدي الترك ، ثم الزحف إلى القسطنطينية ومنها إلى الأرض المقدسة ، وكانت غارته

---

١ - معركة بحرية وقعت عام ١٥٧١م بين الإسطول العثماني وتحالف أساطيل البندقية وأسبانيا والبابا بقيادة دون جوان ابن شارلكان ، وقد انتصر هذا التحالف على الأسطول العثماني وكانت الخسارة كبيرة جداً ، وبعض المؤرخين يعتبرها بداية تدهور الدولة العثمانية .

وليبانت مدينة على مضيق ليبانت قريب من خليج كورنثه اليوناني .

انظر : محمد فريد بك / تاريخ الدولة العلية العثمانية / ٢٥٦ .

٢ - ذكر هذا المشروع مع أنه قال أن المشروعات في القرن الخامس عشر قليلة جداً ، ويبدو أن هذا منها ، ومشاريع الغزو الصليبي لم تهدأ ولكنها تضعف أو تقوى حسب قوة الدولة العثمانية أو ضعفها .

على إيطاليا إنما هي على نية اتخاذ مدينة نابولي قاعدة بحرية يشحن منها الأساطيل إلى الشرق ، وأصل هذه الفكرة عند كارلس الثامن هو أن والد لويس الحادي عشر كان قد قال في سنة ١٤٧٨م لوفد إيطالي : «إنما أبتهل إلى مريم العذراء[١] المجيدة أن تمنح ولدي العزيز شرفاً عظيماً ، وذلك بأن تمكنه من الذهاب بنفسه إلى الشرق ومعه نبلاء فرنسا وفرسانها لقتال التركي المكروه وغيره من الجاحدين » ولما أرسل «لودفيك سنورزا » رسله من ميلانو إلى كارلس الثامن سنة ١٤٧٨م يستحثه على القدوم إلى إيطاليا بعث يقول له : إن السلطان العثماني في القسطنطينية لا يخشى أحداً خشيته من الأمة الإفرنسية ، قال (دوفونسمان) : إنه كان من السهل إقناع كارلس الثامن بأن فتح نابولي إنما هو مقدمة لفتح القسطنطينية وأن لقبه (المسيحي جداً)يستدعي ذلك فزحف كارلس الثامن إلى إيطاليا في شهر يوليو سنة ١٤٩٤م، وفي شهر ديسمبر من تلك السنة كتب إلى بعض أساقفة فرنسا قائلاً : «ليست نيتنا منحصرة في فتح نابولي ، وإنما هي ترمي إلى تأييد الكنيسة والإستيلاء على الأرض المقدسة ونشر كارلس من فلورنسة[٢] منشوراً

---

١ - لا شك في تعصب هؤلاء الملوك وكرههم للإسلام ، ولكن يجب أن لا ننسى أيضاً أن الأوربي - وهو وارث الإمبراطورية الرومانية الإستعمارية - يريد إخضاع الشعوب الأخرى لسيطرته .

٢ -Florence من مدن ايطاليا ، كانت في القرون الوسطى جمهورية مستقلة ، ثم صارت عاصمة لمملكة ايطاليا عام ١٨٥٩م، ثم انتقلت العاصمة إلى روما عام ١٨٧٠م .

قائلاً فيه : « إننا اقتداء بآبائنا ملوك فرنسا المسيحيين ، نريد أن نمنع بما أوتينا من قوة هذه الموبقات الكثيرة التي يرتكبها الأتراك بحق الديانة المسيحية[١] وقد أخذنا على أنفسنا أن لا نضن بنفسنا ولا بشيء من وسائلنا في دفع هؤلاء الطواغيت الأتراك ، والإستيلاء على الأرض المقدسة وغيرها من الممالك التي انتزعوها من أيدي المسيحيين » .

وذكر أنه إنما يريد بفتح مملكة نابولي العبور منها إلى الشرق ونظم له (غيليوش دوبوردو) أحد شعراء الوقت قصيدة يقول فيها : « إنه سيتوج ملكاً على الروم ، ويدخل إلى أورشليم ، ويصعد إلى جبل الزيتون » .

وكان (أندري بالبولوغ)[٢] ، قد أمضى صكاً مؤرخاً في ٦ سبتمبر سنة ١٤٩٤ م[٣] ينزل فيه عن حقوقه في تاج القسطنطينية لملك فرنسا . وكان دخول كارلس الثامن إلى روما في ٣١ ديسمبر سنة ١٤٩٤م ، وكان استيلاؤه على نابولي ودخوله إليها بالثياب القيصريه في ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥م ، وطلب من البابا اسكندر السادس (بورجيا الشهير) أن

---

١ - لم يظلم العثمانيون أحداً من النصارى الذين كانوا من رعية الدولة ، بل تساهلوا مع النصارى أكثر مما يجب ، حتى تكتلوا مرة ثانية وكانوا من المحرضين على الدولة ولكن السياسة الغربية هي هي في الماضي والحاضر ، تؤلب الشعوب الأوربية بحجة تعصب المسلمين .

٢ - من أسرة حكام القسطنطينية قبل أن يفتحها السلطان محمد الفاتح .

٣ - ما هو الحق الذي له فيها وقد فتحت عام ١٤٥٣م !؟ .

يسلمه الأمير (جم) أخا السلطان بايزيد الذي كان ملتجئاً إلى روما[١] ثم كتب إلى رئيس فرسان رودس يكاشفه بما نواه من (نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية وتحرير المسيحيين مما هم فيه من الخنوع للأمة الجاحدة واسترداد الأراضي المقدسة المغصوبة) . فأجابه رئيس نظام فرسان رودس متفائلاً متيمناً مؤملاً هذه المرة (استئصال شأفة الأمة . . . أمة محمد [٢] .

وبلغ السلطان خبر عزيمة ملك فرنسا ، فجهز مئة وعشرين سفينة حربية ، وحشد أربعين ألف مقاتل . وقيل إن كثير من رعايا السلطان المسيحيين كانوا متحفزين للثورة[٣] إلا أنه حصل ما فَتَّ في عضد ملك فرنسا ، فالأمير (جم) أخو بايزيد مات في ٢٥ فبراير ١٤٩٦ م، وقيل

---

١ - بسبب خلاف مع أخيه حول الحكم ، فذهب (جم) هذا إلى مصر ثم التجأ إلى رهبان رودس ، ثم أرسلوه إلى فرنسا وبقي يتنقل بين هذه البلاد سبع سنوات وأخيراً سلموه إلى البابا أنوسان الثامن .

٢ - هنا ألفاظ أبينا نقلها وهي في صفحة ٤٩ من كتاب (مئة مشروع) (ش) .
قلت : لا شك أنها ألفاظ نابية لا تصدر إلا عن سفلة متعصبين وقد أحسن المترجم في عدم نقلها . .

٣ - هكذا فعلوا عندما جاء المغول إلى بلاد الشام ، فرحوا بقدومهم وذهبوا إلى المساجد يصبون الخمور على أبوابها كما يذكر المؤرخ ابن كثير ، مع أنهم عاشوا مع المسلمين في أمن واطمئنان ، ولم يؤذهم أحد ، وهكذا فعل الصرب مع جيرانهم المسلمين في سراييفو ، وقد استغرب المسلمون - لطيبة قلوبهم - هذه التصرفات من جيرانهم سابقاً .

أن السلطان رشا البابا اسكندر بورجيا [١] حتى سمّه وانضم أعداء كارلس الثامن إلى السلطان ، منهم الفونس الأراغوني ، ومنهم البابا نفسه ، وانعقد الحلف المسمى بعصبة البندقيه وحاربت هذه العصبة ملك فرنسا ، وظهر عليها ، إلا أنه اضطر أن يرجع إلى فرنسا .

المشروع الخامس عشر

وتاريخه من سنة ١٥١٥م إلى سنة ١٥١٧م ، وقام بعمل هذا المشروع البابا لاون[٢] العاشر ، وقد أعلن مجمع الكرادلة انتخاب البابا المذكور وأبلغ به ملوك المسيحيين استجلب أنظارهم نحو قضية الإتحاد لأجل محاربة الأتراك ، ثم كتب البابا نفسه إلى الامبراطور مكسيميليان[٣] وملك انكلترا ، وملك بولونيا ، والدوق بازيل

---

١ - أسباني الأصل ، ينسب له ارتكاب جميع الآثام والمحرمات وللشاعر فكتور هوجو رواية عن ابنة هذا البابا ، يشرح فيها ما ارتكبته هي وأبوها من فظائع الأمور .
انظر هامش : تاريخ الدولة العلية / ١٨١ .

٢ - ليون Leon

٣ - في سنة ١٢٧٨ نُصّب رودلف فون هابسبورغ ملكاً ألمانيا ، وبذلك أصبحت النمسا تحت حكم عائلة هابسبورغ الذي دام (٦٤٠) سنة أي إلي سنة ١٩١٨ وفي سنة ١٤٥٢م رُسّم الملك فريدريك الثالث في روما امبراطوراً ، ومنذ ذلك التاريخ إلى سنة ١٨٠٦م أصبح لقب الإمبراطور الجرماني وراثياً في هذه العائلة ومكسيميليان الأول من هذه العائلة ١٤٩٣م - ١٥١٩م هو الذي مدَّ نفوذ العائلة إلى أسبانيا التي حكمها حفيده شارل الخامس ، وإلى المجر وكانت تسمى الإمبراطورية الجرمانية المقدسة ، وكثيراً مايرد ذكر الإمبراطور دون إضافة إلى دولة من الدول ، فالمقصود هو الإمبراطور الجرماني هذا .

المسكوبي[١] ، ثم إنه كرر هذا الاستنفار سنة ١٥١٥ في الجلسة التاسعة في مجمع لاتران ، ثم وعد (فلاديسلاس) ملك المجر بخمسين ألف دوكا[٢] ثم أنفذ الكاردينال (سادولة) من قبله إلي لويس الثاني عشر ملك فرنسا ينتدبه ليقود حملة صليبية جديدة ، كما قاد (غوفروا دي بويون) الصليبية الأولى ، ولما آل ملك فرنسا إلى فرانسوا الأول تلاقى معه في مدينة (بولونية)[٣] وحرضه على قتال الأتراك ، وكتب أيضاً إلى ملك البرتغال يدعوه لهذه الحرب مع سائر ملوك المسيحيين ، ثم عاد إلى مطالبة فرنسوا الأول بإنجاز وعده ، ولما افتتح السلطان سليم الأول الشام ومصر[٤] وازدادت بسطة السلطنة العثمانية ، كتب البابا إلى فرانسوا الأول يقول له : أما لهذا الليل من آخر ؟ وبعد ذلك اجتهد البابا أن يؤلف بين الامبراطور وملك فرنسا وملك قشتاله ، ويوحد حركتهم لحرب الأتراك ، وقد انتدب لجنة خاصة رسمت خطة حربية لقتال الدول العثمانية ، وكان من جملة ما فيها مداخلة بعض ملوك الإسلام من أعداء هذه الدولة واستعداؤهم

---

١ - يعني دوق موسكو ، أو أمير موسكو ، وهذا يدل على أن روسيا بدأت بإمارة صغيرة هي موسكو ، ثم مازالت تتوسع حتى صارت الإتحاد السوفييتي ، ثم انهارت أخيراً ورجعت روسيا إلى حدودها الأولى .

٢ - عملة في ذلك العهد كانت قيمتها عشرة فرنكات فرنسيه (ش) .

٣ - مدينة تقع في شمال شرقي ايطاليا .

٤ - كان ذلك في رجب سنة ٩٢٢ هـ الموافق لعام ١٥١٦ م .

عليها[١] وفي سنة ١٥١٧ في الخامس من شهر مارس أعلن البابا هدنة خمس سنوات بين ملوك النصارى ، وحينئذ لبّى نفيره ملك فرنسا فرانسوا الأول ، وملك اسبانيا كارلس وملك انكلترا هنري الثامن ، وملك البرتغال عمانوئيل ، وملك المجر لويس ، وملك بولونيا سيجيسموند ، وملك الدانمرك كريستيان ، وملك آكوسيا جاك ، وانعقد بينهم اتفاق بتصديق البابا ، ثم في سنة ١٥١٨ م أنفذ البابا أربعة كرادلة يستحث هؤلاء الملوك في تجهيز الجيوش وأقام حفلة طواف في شوارع روما سار هو فيها والكرادلة حفاة ، إلا أن جميع هذه التدابير قضى اللّه يومئذ بإحباطها ، ومات الامبراطور مكسيميليان سنة ١٥١٩ م، وتوقف مشروع هذه الصليبية ، ثم إن الترك استولوا على بوادبست[٢] ، واستصفوا كل بلاد المجر التي بقيت في يدهم مائة وسبعاً وأربعين سنة ، وحاصروا فيينا ، فاضطر شرلكان[٣] امبراطور ألمانيا إلى

١ - بما يعني ملوك ايران ، فليس هناك غيرهم يمكن استعداؤهم على الدولة العثمانية .

٢ - فتحت بودابست وبلاد المجر كلها عام ١٥٢٦ زمن السلطان سليمان القانوني ، وكان السلطان على رأس الجيش الذي فتحها ، وكانت المعركة الفاصلة في وادي موهاكس الواقع جنوب المجر ، انظر : الدولة العلية / ٢١٠ .

٣ - شارل الخامس بن فيليب ، ملك اسبانيا ١٥١٦ ، وجرمانيا ١٥١٩ ، وبلغ من طموحه أنه رغب في إقامة امبراطورية عالمية ، فخاض حرباً ضد فرانسوا الأول ملك فرنسا (٣٠) عاماً . واستولى على روما ودمّرها وحاول الإستيلاء على تونس والجزائر ، وجمع بلاداً واسعة تحت حكمه ضمت : اسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصقلية ونابولي وقسماً من بلاد الجرمان .
انظر : تعليقات شكيب أرسلان على تاريخ ابن خلدون / ١٨٩ ط ١٩٣٦ .

طلب محالفة ملك فرنسا خوفاً من الترك ، إلا أنه لم يلبث الترك أن عقدوا الصلح مع أوستريا سنة ١٥٣٣م سنة ١٥٣٣م ، فاضطر فرنسوا الأول من جهته أن يتودد إليهم ، وأرسل (لافورة) في السفارة إلى تركيا وعقد معها معاهدة ولاء ، ومن ذلك الوقت بقي فرانسوا الأول يستنصر السلطان سليمان في حروبه مع شرلكان[١] وسنة ١٥٤١م سرح السلطان اسطوله تحت قيادة خير الدين بربروس[٢] إلى بحر مرسيليا لإنجاد الاسطول الإفرنسي ، ولما جلس هنري الثاني على عرش فرنسا بقي محافظاً على الولاء لتركيا ، ولم تتصرّم العهود بين الدولتين إلا في أيام أولاد هنري الثاني ، وما تحالف فرانسوا الأول مع السلطان إلا اضطراراً وخوفاً من خصمه شرلكان ، قال روسو صاحب تاريخ (العلاقات السياسية بين فرنسا وتركيا) إن نتيجة تلك المحالفة بين تركيا وفرنسا قد كانت إنقاذ فرنسا من مطامع شرلكان ، ونقل عن أحد أمراء فرنسا «إن فرنسا لا ينبغي لها أن تهمل أمرين مهما كان من الموانع دونهما : الإتفاق مع الشعب السويسري ، والتحالف مع تركيا » .

---

١ - قارن بواقع المسلمين اليوم !!

٢ - خير الدين برباروس ٨٧٧ - ٩٥٧ هـ ، ١٤٧٠ - ١٥٤٧ م من أبطال البحرية الإسلامية قاد معارك كثيره هو وأخوه عُروج ضد الأساطيل الأسبانية التي كانت تهاجم مدن الجزائر وتونس ، وانتصرا في غالب هذه المعارك وخاصة في المعركة التي خاضها خير الدين ضد حملة شارلكان ، أكرمته الدولة العثمانية فعين وزيراً للبحرية عام ١٥٤٦ .

المشروع السابع عشر [١]

وتاريخه سنة ١٥١٨ ، وكان البابا لاون العاشر قد أقنع الامبراطور بلزوم محاربة الترك ، وفي معاهدة الامبراطور مع لويس الثاني عشر سنة ١٥١٣م جرى ذكر هذه القضية ، وكذلك خاطب الإمبراطور نواب الأمة عند اجتماعهم في (مالين) قائلاً لهم : « إننا بالإتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر في حملتنا المحمودة المقدسة على الترك » ولما سأله البابا عن الطريقة العملية التي يراها لأجل إشعال هذه الحرب على الأتراك أجابه بتقرير مفصل ذكر فيه لزوم الإتفاق بين ملوك المسيحيين ودخول ملك فرنسا في هذه الحرب[٢] وأن تستمر الحملة مدة ثلاث سنوات متواليات ، وأشار بتحريك العجم[٣] من جهة ، وتحريك سلطنة مراكش[٤] من جهة أخرى لمشاغبة آل عثمان ، ثم ذكر ملوك

---

١ - لم يذكر المشروع السادس عشر ، وربما اعتبر تحرك البابا مرة ثانية عام ١٥١٧ بمثابة مشروع آخر هو السادس عشر ، وحتى هذا المشروع (١٧) هو من ضمن المشروع الخامس عشر ، ولكن جاء ذكر تفصيل اقتراحات مكسيمليان لمحاربة العثمانيين فاعتبره مشروعاً مستقلاً .

٢ - لشدّ ما أكد القرآن والسنة النبوية على موضوع وحدة الأمة الإسلامية ، ولكن المسلمين في هذه الأيام أضعفهم التفرق ، بينما نرى اتحاد وتكالب الأمم النصرانية عليهم .

٣ - يعني ايران ، وكان الصفويون هم الحكام في هذه الفترة .

٤ - كان الوطاسيون - من الأسر المقربة من المرينيين - هم الذين يحكمون منطقة المغرب ومقرها فاس ، وجاء بعدهم سنة ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م الأشراف السعديون .

النصارى الذين يجب أن يدخلوا في هذه الحرب المقدسة ، فقال : إنهم الامبراطور[١] ، وملك البرتغال ، وملوك فرنسا وبولونيا والمجر ، وأن ملك فرنسا يجب أن يسير من طريق إيطاليا ، فيعبر البحر إلى دالماسيا[٢] وينضم إليه البولنيون والفلاخيون والبغدانيون[٣] ، ويهاجمون جميعاً أدرنة هذا في السنة الأولى ، وأما في السنة التالية فيكون ملك البرتغال استولى على شمالي أفريقيا والإسكندرية ويأتي فيتلاقى مع ملك فرنسا وملك بولونيا في بلاد اليونان ، ويحملون جميعاً على القسطنطينية[٤] وبعد فتحها يسهل فتح آسيا الصغرى[٥] والأراضي المقدسة ثم يصير توزيع الممالك المفتوحة على ملوك المسيحيين بمعرفة البابا ومجمع الكرادلة .

وقد تم عقد هذا الإتفاق ، وتقرر العمل به ، ووعد ملك اسبانيا بتجهيز (٢٣) ألف مقاتل لهذه الحرب ، وبينما هم في التأهب ، إذ مات الامبراطور مكسيمليان في ١١ يناير سنة ١٥١٩ ، فتوقف كل شيء إلى ما بعد انتخاب قيصر جديد .

---

١ - يعني نفسه .
٢ - الشاطيء الغربي لشبه جزيرة البلقان على البحر الإدرياتيكي ، تقع اليوم في كرواتيا خضعت لجنوة من سنة ١٤٢٠ - ١٧٩٧ .
٣ - الفلاخ والبغدان هو معظم ما يسمى الآن رومانيا .
٤ - صار اسمها استانبول بعد فتح العثمانيين لها .
٥ - الأناضول .

المشروع الثامن عشر

وهو مشروع (إيرازم) وتاريخه سنة ١٥٣٠م ، وكان ايرازم هذا من مشاهير رجال الأدب ، ولد في روتردام[١] سنة ١٤٦٧م ومات في بازل[٢] سنة ١٥٣٦م، وقد كانت دعوته لحرب الترك من آثار دعوة البابا لاون العاشر ، ومن آثار فتح الترك لبلاد المجر ، وكان ينادي أن الترك لم يتقدموا في أوربا إلا بسبب انقسام المسيحيين، وكان يغضب لقول بعضهم أن الدين يمنع الحرب[٣]، ويقول : إن المسيحي لا يمكنه أن يعيش إن لم يصرع الترك ، وكان يقول للأوروبيين : «لا تهولنكم عظمة السلطنة العثمانية ، فإن السلطنة الرومانية والفتوحات الإسكندرية[٤] كانت أيضاً بمنتهى العظمة ، وقد جاء وقت انقرضت فيه، ولم ينظم (ايرازم) برنامجاً للعلم ، وإنما كان يثير الأفكار ويحرك الهمم .

المشروع التاسع عشر

وهو مشروع (نانيوس) وتاريخه سنة ١٥٣٦ وكان نانيوس هذا راهباً هولندياً عالماً ، ولد في (الكمار)[٥] سنة ١٥٠٠ ، ومات في

---

١ - مدينة في هولندا .
٢ - مدينة سويسريه .
٣ - أناجيل النصارى تقول : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » .
٤ - نسبة إلى القائد المشهور اسكندر المقدوني .
٥ - مدينة صغيرة في شمالي هولندا .

(لوفان)[١] سنة ١٥٥٧ وكانت دعوته بعد دعوة ايرازم بثلاث سنوات ، وهي تتضمن الجواب على دعوى أن الديانة المسيحية انتشرت بدون سفك دماء ، فيقول نانيوس : إن المسيحيين الأولين كان عندهم صبر وجلد ، وكان استشهاد مؤمن واحد في سبيل الدين سبباً لاهتداء ألف نفس ، وأما فيما بعد فقد تغيرت الحال ، وهذه سبعة قرون مضت والأمة الجاحدة[٢] تهين المسيحية ، وكلما انتصر الأتراك وتقدموا ازدادوا استمساكاً بعروة دينهم ، ثم إن الإسلام قد غزا آسيا وأفريقية وأوربا ، ولذلك أصبحت محاربة المسلمين ضرورة من الضرورات لا مناص منها ، والتركي إن لم تحاربه أنت كان هو الذي جاء يحاربك ، فلا بد إذاً من محاربته ، ولو اتفق المسيحيون لأبادوا الأتراك ، ولكن هؤلاء انتهزوا فرص الاختلاف بين المسيحيين ، وقد أدخل الأروام الترك في بلادهم هم بأيديهم ، كما يتجرع الإنسان السمَّ بيده ، وما فتوحات الترك إلا انتهاز فرص ، ومتى قاومهم المسيحيون حق المقاومة هزموهم ، أفلم ينهزم سليمان عن فيينا[٣] .

---

١ - تقع في الوسط الشرقي من هولندا .

٢ - يعني المسلمين .

٣ - يعني السلطان سليمان القانوني ، وقد حاصر فيينا سنة ١٥٢٩ ، ثم تراجع لقوة المدافعة وهجوم الشتاء القارس ، وقد حوصرت المدينة مرة ثانية سنة ١٦٨٣ في عهد السلطان محمد الرابع ووزارة مصطفى باشا ، وتراجع العثمانيون مرة ثانيه بعد أن كاد الفتح أن يتم بسبب مجيء الجيوش الألمانية والبولونية لمساعدة النمساويين .

المشروع العشرون

وصاحبه (كوسبينانوس) الطبيب الألماني من فرانكفونيا كانت ولادته سنة ١٤٧٣م ومات سنة ١٥٥٩م ، وكان من مستشاري الامبراطور مكسيمليان ، وقد تقدم بمشروعه سنة ١٥٤١م ، وذكر في أول كتابه أصل الأتراك وكيف دخلوا شبه جزيرة البلقان ، وكيف حاولوا فتح فيينا ، ثم أخذ يتكهن بسقوطهم ، ويورد العلامات التي تؤذن باسترداد المسيحيين للقسطنطينية ، قال : إن راهباً تكهن قبل فتح الترك للقسطنطينية بأن المسيحيين سيعودون إليها بعد ثمانين سنة ، وقد مضى من المدة تسع وسبعون سنة ، ولم يبق إلا سنة واحدة ، وأورد كلام متنبىء آخر فلكي من نابولي اسمه (مينا تنيس) نظم نبوءته شعراً، وهي في هذا المعنى ، ثم أشار إلى ملحمة لاتينية قديمة مضى عليها مئة سنة موجودة في (ماغدبورغ) مآلها أن رجلاً من أعقاب شارلمان يكون اسمه كارلس هو الذي يعيد السلطنة الشرقية ثم ذكر صاحب هذا المشروع تاريخ آل عثمان إلى السلطان سليم عاشر سلطان منهم ثم أشار إلى الطرق التي يمكن المسيحيين أن يدخلوا منها إلى شبه جزيررة البلقان ويطردوا الترك من أوربا ، وقال أنه يجب اتخاذ خطة الهجوم اقتداء ب

أنيبال[١] وقيصر ، وذكر مواقف (جان هونياد)[٢] الشهيرة وقال : لو اتفق الألمان والمجر بدلاً من أن يتقاتلوا لطردوا الترك إلى آسيا ، ونهاية كلامه حث الامبراطور شرلكان على قتال الترك .

المشروع الواحد والعشرون

وهو المنسوب إلى (جيور جنيتز) وتاريخه سنة ١٥٤٢م وكان جيور هذا رحالة مجرياً ، نشأ عند الأتراك ، وقيل أنه بقي أسيراً عندهم مدة ثلاث عشرة سنة ، وانتهت حياته في روما سنة ١٥٦٠م ، وكتب تاريخ وقوعه في الأسر ، وما عاناه فيه ، وطعن في الترك ، وذكر في كتابه ملاحم تشير إلى انقراض الدولة العثمانية ، وكان يرجو أن يهتدي الترك إلى الدين المسيحي ، وقد كان نداؤه لمحاربة الترك حرباً صليبية موجهاً إلى الأرشيدوق مكسيميليان النمساوي ، وقال : إن السلام الآن بين ملوك المسيحيين كاد يكون عاماً ، فلا يجوز التوقف عن حرب الترك ، ثم ذكر الدول التي تقدر أن تجند أكثر من خمسين ألف راجل وعشرين ألف فارس مثل ألمانيا وفرنسا وأسبانيا وملوك ايطاليا ، ثم ذكر أن في استطاعة المجر وموارفيا[٣] وسليزيا[٤] وبوهيميا ، وبلاد الدانوب تقديم

---

١ - القائد القرطاجي (هانيبال)

٢ - قائد مجري ولد سنة ١٤٠٠ م ، اشتهر بمحاربة العثمانيين ومقاومته الشديدة لهم ، مات سنة ١٤٥٦م أثناء دفاعه عن مدينة بلغراد عند محاصرة السلطان محمد الفاتح لها .

٣ - منطقة من تشيكوسلوفاكيا ، تقع إلى الشرق من بوهيميا .

٤ - منطقة في أوربا الوسطى ، أصبحت جزءاً من بولونيا بعد الحرب العالمية الثانية .

مثل ذلك أيضاً . قال المؤرخ دجوفارا : إنه لو كان احتشد وقتئذ ٢٢٠ ألف راجل و ٩٠ ألف فارس لكان جيشاً عرمرماً ، وكان يرجى منه العمل ، ولكن (جيورجنيتز) يقع في التناقض مع نفسه عندما يقول : « إن الجندي المسيحي لا يفكر إلا في الأجرة التي يأخذها ، وأن الجندي المسلم يترك كل رذيلة إذا صار إلى ميدان الحرب » .

وفي سنة ١٥٤٢م ظهر في مدينة (أنفرس) في بلجيكا نشرة فيها نداء للنصرانية أن تتخذ ، وتزحف نحو الأتراك وتقهر هذه الأمة الجاحدة . . . وفي السنة نفسها ظهر مشروع حرب صليبية للبرنس يواكيم الثاني من أمراء براندبورغ .

المشروع الثاني والعشرون

وهو المنسوب إلى (غيلوم دو غرانتري دو غرانشان) وتاريخه سنة ١٥٦٦ إلى ١٥٦٧ ، وكان هذا الرجل أقام ثلاث عشرة سنة في القسطنطينية[١] وعاد منها إلى فرنسا مع السفير دارامون سنة ١٥٥١ ثم في سنة ١٥١٦ عينته فرنسا سفيراً في تركيا نظراً لخبرته بأحوال تركيا ، ولكن (غرانشان) لم يوفق كثيراً في سفارته هذه إلى حد أن الملك كارلس التاسع كتب إلى الصدر الأعظم[٢] محمد الصوقولي يقول له :

---

١ - إن بساطة المسلمين وطيب قلوبهم تجعل هذا الرجل يقيم بين أظهرهم وقد أقام غيره مثل كثير من جواسيس الإنكليز خاصة في البلاد العربية .

٢ - لقب في الدولة العثمانية لما يسمى الآن رئيس الوزراء .

« إن غرانشان الذي عهدنا إليه بجميع أشغالنا في الشرق ، هو منتظر أن نرسل شخصاً بدلاً عنه لأنه لا يعجبكم » وسنة ١٥٧٠ رجع إلى فرنسا وبيده كتاب من السلطان سليم الثاني إلى ملك فرنسا .

وكان غرانشان يحلم أن يتزوج بالأميرة (كيانيه) الفلاخيه الرومانيه ابنة أمير رومانيا ، ثم يرث بعد ذلك إمارة رومانيا ولكن حلمه لم يصح فاقترح على الباب العالي أن ينصبه أميراً على الفلاخ والبغدان ، وأنه هو في مقابلة ذلك يسعى في تقريب الفرنسيس البروتستانت من الأتراك بحجة أن بين عقيدتي الفريقين تشابها[١] ، وكانت تركيا تساعد حركة البروتستانت في أوربا ، وكان من جملة ما فكرت به الملكة (ماري دو مديسيس) إبعاد الهوغنوت هؤلاء من فرنسا لإعادة السلام إلى البلاد ، وكان غرانشان يعرف مقاصد الملكة ويجتهد في تحويل هجرة الهوغنوت إلى رومانيا ، وروى المؤرخ هامر[٢] أن الأمير الروماني بطرس الأعرج وأمه كشفا للبابا العالي دسائس غرانشان وبذلا في القسطنطينية (٢٠) ألف دوكا لأجل إحباط مساعيه .

---

١ - كان هؤلاء البروتستانت مضطهدين من قبل ملوك فرنسا .

٢ - أشهر مؤرخ أوربي لتركيا (ش) .

المشروع الثالث والعشرون

وقد هيأه البابا بيوس الخامس ، وتاريخه ١٥٧٠ ، ويقول المسيو فلامان إنه هو التدبير الوحيد الذي أوقف تقدم الإسلام ، وكانوا في زمن البابا بوليوس الثالث قد استنفروا الناس أيضاً لقتال الترك ، ولكن القول لم يقترن بالعمل إلا في عهد بيوس الخامس ، وكان الامبراطور مكسميليان[١] قد جمع أمراء ألمانيا والنمسا في (أوغسبورغ) للتذاكر في قضية الأتراك ، وأرسل البابا بيوس الخامس لشهود هذا المجمع من قبله الكردينال (كوماندون) ومعه (كانيزيوس) اليسوعي ، فأجمع الأمراء الكاثوليكيون على الوعد بالسير لقتال الترك ، واستنكف عن ذلك أمراء البروتستانت ، وقدم البابا للامبراطور لأجل تجهيز الحملة على الترك (٥٠) ألف دوكا ، وتعاهد (عمانوئيل) دوق سافواي[٢] و (الفونس رسي) دوق فراري و (توم مديسيس) ودوق مانتو ، وجمهورية لوك ، وجمهورية جنوة ، على قتال الترك إجابة لدعوة البابا وشرع هذا يصلي ويذرف الدموع ، وقيل إن السلطان سليمان ، قال : إني لأخشى من صلوات هذا البابا ما لا أخشاه من جميع

---

١ - ابن ملك النمسا فردينان الأول وليس مكسيمليان ملك ألمانيا الذي مات سنة ١٥١٩ .

٢ - سافواي : إقليم على سفوح جبال الألب في الجنوب الشرقي من فرنسا ، اقتطعته فرنسا من ايطاليا مع مدينة (نيس) جزاء مساعدتها لإيطاليا في التخلص من حكم النمسا .

وكلمة Duke لقب عسكري روماني في الأصل ، ويعطى لأبناء الأسر الحاكمة .

جيوشهم »[١] وكان سليمان قد شَنَّ الغارة على بلاد المجر ، وحاصر زيغت[٢] ومات قبل فتحها بثلاثة أيام (٣٠ أغسطس ١٥٦٦) وأخفوا موته عن الجيش إلى أن تم الفتح وجاء ابنه سليم الثاني من الأناضول ، فرأى الأحوال مما يقتضي جنوحه إلى الصلح ، فعقد هدنة إلى ثماني سنوات مع الامبراطور مكسيمليان .

أما البابا فلم يفتر ، ولم يعدل عن مشروعه في جمع كلمة النصرانية على الترك ، وكان يقول : إنه يجب على الأمة المسيحية أن تسير قاطبة لقتالهم . ومما كتبه : « إن السلطنة التركية قد تَبَسَّطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا ، إلى حد أننا أصبحنا لا نقدر أن نقف في وجه اعتدائها إلا إذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو العام ، وناشبوه القتال براً وبحراً ، ولما كنا نحن على ثقة بأنه لا يوجد في المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته ، كان لا مندوحة لنا من أن ندعوهم جميعاً لقتاله ، ولخضد شوكة الأتراك أعدائهم جميعاً » فأرسل ملك اسبانيا خمسين سفينة بقيادة (أندري دوريا)[٣] و (بطرس

---

١ - بعيد أن يصدر هذا الكلام من السلطان سليمان ، وهو الذي دوخ أوربا ، والبابا يستطيع أن يجمع أوربا ، ولكن ما قيمة دعائه وصلواته وهو مشرك بالله !

٢ - مدينة في جنوب المجر ، يذكرها الأتراك باسم سكدوار .

٣ - قائد بحري من عائلة جنوية الأصل ، كان ضد فرنسا في حروبها مع ايطاليا ، ثم انحاز إلى فرنسا ضد (شارلكان) ملك ألمانيا ، له عدة وقائع مع الدولة العثمانية ، اشتغل أخيراً بتنظيم جمهورية جنوة ، مات عام ١٥٦٠ .
انظر : هامش تاريخ الدولة العلية / ٢١٨ .

دومونت) رئيس فرسان مالطة ثلاث سفن ، ودوق سافواي أربعاً ، وكان اسطول البندقية تحت قيادة (زان) واسطول البابا تحت قيادة (كولونا) وجاء الأسطول العثماني فرسي أمام جزيرة قبرص في أوائل يوليو سنة ١٥٧٠ وفي ٨ سبتمبر جرى هجوم عام ، وفتح الترك نيقوسيا قاعدة الجزيرة ، وفرَّ الأسطول الأسباني وانكفأ اسطول البنادقة واسطول البابا إلي كورفو وإذ بلغ هذا الفشل البابا ، أرسل إلى ملك فرنسا يقول له : « إن قضية الحلف المقدس هي عندنا من الأهمية بحيث أنها لم تترك لنا راحة لا في الليل ولا في النهار ، ولا نرجو لنا راحة إلا في دخول جلالتك في هذا الحلف » ولما أجابه (كارلس التاسع) معتذراً بالمعاهدات التي بينه وبين تركيا ، كتب إليه البابا يقول : « إن جلالتك لا تبرأ من اللوم إذا كنت لأجل فائدة شخصية أو أية فائدة كانت تستمر على علاقاتك الودادية مع الكفار[1] ومراد البابا بذلك أنه وإن كان ملك فرنسا مرتبطاً بعهود مع الأتراك فهو في حلٍّ منها ، وليس عليه أن يرعى عهوداً للمسلمين .

فتأمل في هذا ، وقابله مع شريعة الإسلام التي هي في هذا الموضع محددة بهذه الآية : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء

---

١ - يقصد المسلمين ، والعبارة غير واضحة والظاهر أنها : « لا تبرأ من اللوم إذا كنت لأجل فائدة شخصية ، وأية فائدة في أن تستمر على علاقاتك الودادية مع . . . » أي بما أن نقض العهد مع المسلمين هو للمصلحة العامة فلا مانع برأي هذا البابا .

بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير ﴾ [الأنفال ٢٧] ومعنى ذلك أن على المسلم نصر أخيه المسلم على غير المسلم إلا إذا كان بين هذا وبينه ميثاق ، فلا يجوز نقض هذا الميثاق بوجه من الوجوه .

وكم جاء في القرآن الحث على حفظ العهود بإزاء أي كان مسلماً أو غير مسلم ، قال الله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا . . . . ﴾ [البقرة / ١٧٧] وقال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ إلى أن يقول ﴿ والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون ﴾ [المؤمنون ١ - ٨] وقال تعالى ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة ٤] .

فأنت ترى أن الإسلام لا يقيد المؤمن بالعهد إذا كان تجاه المؤمن ، ويطلقه منه إذا كان بإزاء غير المؤمن كما فعل البابا بيوس الخامس الذي يصرح في كتابه لملك فرنسا بأنه لا يجوز له لمصلحة شخصيته أو لأي سبب آخر أن يرعى عهوده للأتراك الذين هم غير مسيحيين . وقابل قول البابا هذا بوصية سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه للأشتر

النخعي عندما ولاّه على مصر ، وذلك في كتابه الشهير للأشتر ، قال « وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض اللّه شيء الناس أشد عليه إجماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت أرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا[١] من عواقب الغدر ، فلا تغدرنَّ بذمتك ، ولا تخيسنَّ بعهدك ، ولا تَختلنَّ عدوك ، فإنه لا يجترىء على اللّه إلا جاهل شقي ، وقد جعل اللّه عهده وذمته أمناً أمضاه بين العباد برحمته ، وحريماً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره ، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تعولنَّ على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد اللّه إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته ، وأن تحيط بك من اللّه فيه طلبة فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك » الخلاصة أن الإمام علياً رضي اللّه عنه استقصى جميع ما يخطر بالبال في باب حفظ العهود ، ورد غدر كل معتذر في نقضها ، ولم يجعل العهد مسؤولاً بإزاء المؤمن وغير مسؤول تجاه غير المؤمن .

ونعود إلى الكلام على حلف ملوك النصارى لمقاتلة الأتراك ، ونقول : إن كارلس التاسع ملك فرنسا أبدى بعض معاذير ، لكنه كان

١ - استوبل المدينة أي استوخمها ولم توافقه .

في الحقيقة مستعداً لنكث عهده مع تركيا إذا ارتضى المسيحيون بتمليك أخيه على بولونيا ، وكذلك الامبراطور مكسمليان كان اعتذر للبابا بمعاهدة بينه وبين السلطان سليم الثاني فرَدَّ البابا عذره، وأجاز له الخيس بعهده، بحيث لم تمض أيام ثلاثة حتى نقض الامبراطور الميثاق الذي بينه وبين السلطان، كما حرر ذلك دجوفارا[١] في الصفحة ١٠١ من كتابه .

ولما رأي البابا تثاقلاً من سجيسموند ملك بولونيا عن إجابة النفير لحرب الأتراك ، خاطب إيفان ملك الروسيا ، ثم إنه أرسل إلى فيليب الثاني ملك اسبانيا يشكو إليه قعود الأسطول الإسباني عن مناجزة اسطول الترك القتال ، ويعرض عليه نفقات الحرب ، فتقبل فيليب ذلك بقبول حسن ، ووضع اسطوله تحت إشارة البابا ، ثم إن هذا اختار الدون جوان النمساوي ابن شرلكان من إحدى حظاياه قائداً عاماً للحملة ، وسيّر أمراء ايطاليا بعوثهم .

ثم انعقد التحالف في (٢٥) مايو سنة ١٥٧١ ، ونشر في ٢٥ يوليو ، وهو الحلف المسيحي الثالث عشر في وجه الدولة العثمانية منذ تأسيسها إلى ذلك العهد . وقد جاء في صك هذا الحلف « إن البابا بيوس الخامس وفيليب ملك اسبانيا ، وجمهورية البندقيه يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي

---

١ - مؤلف الكتاب .

اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس [١] وكان البابا نفسه قدم للحرب (١٢) سفينة حربية وثلاثة آلاف راجل و ٢٧٠ فارساً ، وتقرر توزيع نفقات الحملة على الوجه الآتي : النصف على ملك اسبانيا ، والثلث على جمهورية البندقية ، والسدس على البابا .

ولما احتشدت أساطيل الحلفاء بلغت ٢٢٥ سفينة حربية ، و ٧٠ مركب نقل ، وكان إقلاعها من مرسى مَسيّني [٢] في ١٥ سبتمبر سنة ١٥٧١ ، وكان الاسطول العثماني (٢٤٥) سفينة حربيه ، (٨٧) مركب نقل ، أي أرجح من أسطول الحلفاء . وتلاقى الفريقان في خليج (ليبانت) [٣] ونشبت الواقعة البحرية الشهيرة ، وقضى اللّٰه بتمحيص المسلمين ، وفقدوا ثلاثين ألف مقاتل [٤] ، وأخذ المسيحيون منهم ١٣٠ سفينة و ١٠ آلاف أسير ، وكانت هذه المعركة مبدأ تقهقر السلطنة العثمانية .

وقيل إن السلطان سليمان الثاني قال لسفير البندقية بعد المعركة : « نحن عندما نفتح لكم مملكة نكسر لكم عضواً لا يمكنكم تعويضه ،

---

١ - تأمل كيف اعتبروا هذه الأماكن من بلدان المسيحيين (ش) قلت : كان الأخوة : عروج وخير الدين بربروس من الأبطال الذين دافعوا عن الجزائر وسواحل البحر المتوسط ضد الغزو الأسباني . انظر : بسام العسلي : خير الدين بربروس .

٢ - ميناء في أقصى الطرف الشرقي لجزيرة صقلية .

٣ - خليج ما بين شبه جزيرة المورة وبقية شمال اليونان عند مدينة ليبانت .

٤ - الأقرب إلى الحقيقة ما جاء في كتاب (تاريخ الدولة العلية) / ٢٥٧ وهو (٣٠) ألف أسير وإن كانت الأرقام دائماً يبالغ فيها فإنه يبعد أن يقتل هذا العدد .

وأما متى خسرنا اسطولاً فلا يكون ذلك إلا كالشعر الذي يذهب بالحلاقة ثم ينبت»[١] .

والحقيقة أن نجم آل عثمان بعد هذه المعركة بدأ بالأفول وأن ركب الإسلام شرع بالقفول[٢] وإن واقعة ليبانت كان لها ما بعدها[٣] .

ولا تسل عن الأفراح التي عمّت أوربا بهذه النصرة وعن القصائد التي نظمها الشعراء ، الخطب التي شققها الفصحاء ، وبلغ الفرح من البابا مبلغاً لا يحيط به الوصف ، إلا أنه لم يستنم إلى الدعة بعد هذا الظفر ، بل بقي يعلق على النصرانية أن عدوها لا يبرح شديداً ، وأنها لا تزال منه بخطر ، ولم يكتف بإثارة ملوك النصرانية على الترك بل حاول إثارة ملوك المسلمين الذين بينهم وبين الترك ضغائن ، ونقل المسيو دجوفارا صورة كتاب من البابا المذكور إلى (طامهاسب)[٤] شاه العجم من جملة ما جاء به : « لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين إذ هم عرضة للهجوم من جميع

---

١ - لا أدري ماذا يقصد هذا السلطان بالعضو الذي لا يمكن تعويضه ، ولكن الذي نعلمه أن الدولة العثمانية كانت متساهلة مع البلاد المفتوحة .

٢ - إن انهزام المسلمين في معركة لا يعني القفول ، ولكن التأخر والضعف جاء لأسباب أخرى ، أسباب تأخر العلم والإقتصاد ، والإدارة السياسية للبلاد .

٣ - كان الأولى بالسلاطين بعد هذه الواقعة الإهتمام بالجبهة الداخلية والإنسحاب من المناطق التي جعلتها أوربا جرحاً عميقاً لإضعاف الدولة .

٤ - هكذا . . . والصحيح (طهماسب) .

الجهات»[١] . وأرسل البابا بواسطة البرتغال يستعدي ملك الحبشة والشريف مطَهراً إمام اليمن على الدولة العثمانية ، ولكنه لم يعش[٢] طويلاً بعد هذه الفرحة لأنه مات في أول مايو سنة ١٥٧١ ، وانحلت بموته تلك الرابطة ، وتصالحت البندقية مع الباب العالي ، وغضب البابا غريغوريوس الثالث عشر على البنادقة ، وكان هذا البابا قد اجتهد أن يقفو أثر سلفه في حرب الترك ، وجمع لذلك الأسبانيول والبنادقة ، إلا أن اسطول الحلفاء تقهقر أمام الاسطول العثماني ، والتجأ إلى نافارين[٣] (١٥٧٢) وانعقد الصلح بن تركيا والبندقية في (٧) مارس سنة ١٥٧٢ وبقيت في أيدي الترك قبرص والمدن التي كانوا افتتحوها من ألبانيا ، وقدمت البندقية ثلاثمائة ألف دوكا للسلطان ، و (٥٠) ألف دوكا لصدر الأعظم ، وزادت ما كانت تؤديه من جزية جزيرة زانتي[٤] في المورة .

---

١ - ليست المرة الأولى التي تحاول لأوروبا أن تتحالف مع ملوك ايران لضرب الدولة العثمانية .

٢ - أي البابا المذكور .

٣ - ثغر حربي مهم في الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة المورة اليونانية .

٤ - جزيرة صغيرة قريبة من الساحل الغربي لشبه جزيرة المورة .

المشروع الرابع والعشرون

وهو مشروع ايطالي ، وتاريخه سنة ١٥٧١ ، قال المسيو دجوفارا : إن ظفر المسيحيين في ليبانت أثار الحماسة في رؤوس كثير من الأوروبين وشرعوا في ترتيب برامج ورسم خطط لمحو الدولة العثمانية ، ومن جملتها برنامجان محفوظان في خزانة كتب (أمبروزياما) في ميلانو[١] أشار إليها (جورغا) في تاريخ السلطنة العثمانية ، وأحد هذين البرنامجين مقدم إلى البابا بيوس الخامس ، وأكثر موضوعه يدور على إيجاد المال اللازم لغزو الترك ، وهو يحسب الأديار[٢] ١٤٤٠٠٠ والرعويات[٣] ٢٨٨٠٠٠ ، ويفرض عليها مبالغ معينة ، ويفرض مبالغ أخرى على الأمراء ، ويبين كيفية اجتباء الأموال مما لا حاجة بنا إلى ذكره . وأما عدد الجيش اللازم فيقدره صاحب أحد البرنامجين بمائة ألف راجل وخمسين ألف فارس وخمسين ألف بحري ، وهو يدخل في تفاصيل من جهة نفقات الحرب لا حاجة أيضاً إلى ذكرها ، ويشير بسير الامبراطور الجرماني من جهة البر ، وبسير اسطول الملك فيليب من جهة البحر ، وبإثارة نصارى الشرق وبتوزيع الأسلحة عليهم ، وبمكاتبة شاه العجم لمهاجمة الترك من الوراء ، وصاحب هذا المشروع

---

١ - مدينة كبيرة في شمالي إيطاليا .

٢ - جمع دير وهو مركز رهبان النصارى .

٣ - دور الرعاية التابعة للكنائس .

يرجو هكذا تدمير السلطنة العثمانية ، ومن بعد تدميرها الاستيلاء على الأراضي المقدسة ، ويدخل في مشروعه إلحاق مصر وقسم من بلاد العرب بالحبشة ، وأما شاه العجم فيعامل معاملة صاحب ولو كان مسلماً ويجوز أن تكون هذه المعاملة سبباً لاهتدائه إلى الكثلكة .

وأما المشروع الثاني المحفوظ في مكتبة ميلانو فهو :

المشروع الخامس والعشرون

وتاريخه سنة ١٥٧٢ ، وصاحبه يذكر استعداد الأتراك للدفاع خوفاً من عادية الأوربيين ، ويقول إن لديهم (٢٥) ألف فارس في المورة ، ومثلها في شمالي بلاد اليونان فهو يشير بمهاجمة الدردنيل والزحف من هناك إلى القسطنطينية ، وهكذا يضطر الترك إلى اخلاء المورة ، ويحتلها الأوربيون ، وأما بلاد الجزائر فيخشى إن هوجمت أن تقاوم مقاومة شديدة وتأتيها نجدات من سلطان فاس ، وأما قبرص فهي بعيدة عن أوربا ، وأما بلاد المورة والأرخبيل[1] فأهلها لا يثورون إلا بعد انهزام الترك ، فالرأي الأول عنده هو الزحف على الأستانة رأساً ، وصاحب هذا المشروع يشكو تخاذل المسيحيين ، ويقول إنهم لو اتحدوا لما أبقوا للأتراك باقية ، ولكن دوق موسكو وملك بولونيا لا يعتمد عليهما ، والنمسا ضعيفة بنفسها ، ولولا نجدة الألمان لها لأضافها الترك

---

١ - الجزر الكثيرة المتناثرة في البحر الذي يفصل ما بين تركيا واليونان .

إلى ممالكهم ، وفرنسا مشغولة بمنافستها مع الامبراطورية الجرمانية ، وانكلترا وأكوسيا[١] والدانمرك والسويد بعيدات المزار ، وهن لا يلتفتن إلى نداء البابا .

قال صاحب هذا البرنامج : إن الذي يمكنه أن يصارع الأتراك هو ملك اسبانيا ، ومعه ملك البرتغال ، وأهم عدو للترك في الشرق هو الشاه الصفوي ، لكن يحتاج إلى المال والمدافع ، والكرج يمكنهم أن يدافعوا الترك لكنهم لا يقدرون أن يهاجموهم ، ولو كان العرب متحدين لأمكنهم أن ينتزعوا من أيدي الترك مصر والشام ، وكذلك عرب ليبيا وأفريقية ليسوا متحدين[٢] وملك فاس لا يجرؤ على عمل حذراً من جيرانه ، والنجاشي يمكن الإعتماد عليه لكنه لا يملك أسلحة نارية ولا اسطولاً .

قال : ولو كان عند دوق موسكو[٣] سفن بحرية لما كان أحد أقدر منه على مهاجمة الأستانة ، والخلاصة أن صاحب هذا المشروع لا يُعَوّل في حرب الترك إلا على البابا وأسبانيا والبرتغال ، وهو يقترح جمع

---

١ - إقليم اسكتلندا الحالي الواقع في الجزء الشمالي من بريطانيا .

٢ - هل كل هذا حرص على أراضي بلاد الشام ومصر ، أم أن تفتيت الدولة العثمانية يساعد على التهام بلاد الشام ومصر ، كما استطاعت بريطانيا وفرنسا أن تفعلا بعد الحرب الكونية الأولى ، وبعد أن ساعد العرب هاتين الدولتين في ضرب الدولة العثمانية ، فكان جزاؤهم أن احتلت أوربا أكثر البلاد العربية .

٣ - كانت موسكو يومها مجرد إمارة صغيرة .

الأموال وجعلها تحت يد البابا ، ومن رأيه الخدمة العسكرية الإجبارية لمحاربة الترك ، وأن يتجند الرهبان والقسيسون لهذه الحرب المقدسة .

المشروع السادس والعشرون

وهو مشروع الكابتيان (لانو) وتاريخه سنة ١٥٨٧ وهذا الرجل كان من أعوان هنري الرابع ملك فرنسا ، جرح في إحدى الوقائع في يده فقطعوها له ووضعوا له ذراعاً من حديد لأجل أن يتمكن من مسك اللجام ، فسمي من ذلك العهد (ذراع من حديد) وقد عاش في عصر كثر فيه تأوه الأوربيين على شقاء نصارى المشرق من أروام وصرب وبلغار ومكدونيين . فكتب (لانو) رسالة أشار فيها باتحاد مسيحي على الأتراك وتقسيم سلطنة آل عثمان ، وقال إن الضرر إنما وقع من محالفات بعض ملوك المسيحيين لملوك المسلمين أعداء اسم المسيح ، وقال إن ملوك المسيحيين لو اتحدوا لطردوا الترك في أربع سنوات ، قال دجوفارا : إن (لانو) أفرط في التفاؤل ، فقد لزم بدلاً من أربع سنوات أربعمائة سنة حتى أمكن التغلب على تركيا .

وكان لبرنامج (لانو) وقع عظيم في أوربا ، وقد استؤنف البحث فيه تحت أسماء أخرى .

المشروع السابع والعشرون

وهو مشروع (رينه دو لوزينج) وتاريخه ١٥٨٨ . هذا الرجل من أسرة نبيلة في سافواي حصل العلم في جامعة تورينو، والتحق بدوق (ميانزا) الذي كان مع الامبراطور الجرماني في حرب الترك ، ثم جعله دوق سافواي سفيراً له في باريز ، وله مؤلفات كثيرة باللاتينية والإفرنسية منها كتاب اسمه (تاريخ منشأ الترك وتقدمهم وتقهقرهم) ودعا فرسان النصارى لقتال الأتراك بألفاظ مهيجة تناول فيها الإسلام ، وصوّر ما يجري من فظائع القتل والنهب على إخوانهم نصارى الشرق[1] وقبّح اعتذارات المسيحيين من عدم اتحادهم ، وقال إنهم وإن لم يتحدوا بعضهم مع بعض فيجب عليهم الإتحاد على العدو العام ، وقال إنه يجب أن يعقدوا هذا الحلف بينهم في زمان السلم .

وكان يرى رأي (سانوتو) وهو أن الهجوم على تركيا يجب أن يكون من البحر ، وقال إن السلطنة العثمانية متداعية إلى الإضمحلال بعوامل داخلية ، قال دجوفارا : إن لوزينج لم يخطىء في هذا الرأي ، ولقد كان بعيد النظر فيه لأنه تحقق بعد أعصر من ذلك العهد .

---

١ - كل هذا كذب وافتراء ، والقصد إثارة حمية نصارى أوربا وهذا الأسلوب كان وما يزال في إثارة شعوب أوربا ضد الإسلام وأهله .

المشروع الثامن والعشرون

وهو مشروع البابا أكليمانضوس الثامن وتاريخه ١٥٩٤ - ١٦٠٠ وقد كان هذا البابا جاداً مشيحاً ، فلم يجلس على عرش البابوية في الخامس من يوليو سنة ١٥٩٢ حتى أرسل إلى الامبراطور رودلف[١] يستنفره لحرب غير المؤمنين . وامتاز هذا البابا على غيره بكونه أرسل إلى الشرق عدداً كبيراً من القصّاد والدعاة لتحريك المسيحيين على الثورة ومقاتلة الترك ، ومنهم (كوميليو) الذي كانت مهمته أن يجمع على مشاغبة الترك العجم والقوزاق والترانسلفانيين[٢] والفلاخ والبغدان والبلغار . وأشخص إلى مصر (كاميليو كاتاني) أسقف سرفيا ، فأرسل بطريرك الإسكندرية إلى البابا بمقابلة ذلك معتمدين من قبَله[٣] ، ثم أرسل إلى براغ (بلاد التشيك) سبيزيانو أسقف كريمون ، والكاردينال (مادروزو) وأرسل إلى بولونيا (مالا سبينو) وأرسل إلى جبل لبنان اليسوعيين (دانديني) و (برونو) وراسل الروس ، وهم أنفذوا إليه بعض مطارينهم ، ولم ينس العجم ، بل أنفذ إلى فارس

---

١ - ابن مكسيمليان ، ولد في فيينا ١٥٥٢ وتعين ملكاً على المجر عام ١٥٧٦ ، ثم ملكاً للنمسا ، ثم انتخب امبراطوراً لألمانيا ١٥٧٦ ، درس على أيدي اليسوعيين في اسبانيا وقد استعاض خلال سنوات حكمه عن نظرية والده في التعايش ، وحارب البروتستانت في هنغاريا ، خلعه أخوه ماثياس سنة ١٦١١ .

٢ - ترانسلفانيا : ومعناها البلاد الواقعة فيما وراء الغابات كانت من أهم أقاليم مملكة النمسا ، وقد تبعت مدة للدولة العثمانية .

٣ - **هذا يعني أن بطريرك الاسكندرية تعاطف مع البابا ضد الدولة العثمانية.**

الأب كوستا ، والأب (ديانموميراندا) وسعى كثيراً بإقناع سجيسموند أمير ترانسلفانيا بترك الأتراك لأن هذا كان متمسكاً بهم ، وكان يهوّن أمر الأتراك على ملوك المسيحيين ، ويبعث إليهم بما يترامى من أخبار دبيب الفساد والإنحلال في تركيا ، وكان يوبخ البولونيين كثيراً على قعودهم عن حرب الترك ، وأرسل[1] (كاميل بورغيز) إلى أسبانيا يستعدي هذه الدولة على الترك ثم شفعه بمندوب آخر هو (الدوبرانديني) الذي هو ابن أخت البابا ، ومازال يغري هنري الرابع ملك فرنسا بعداوة الترك حتى كتب هذا إلى سفيره في الأستانه (بريف) قائلاً له : « إن الأب الأقدس يأبى إلا أن أنضم إلى ملك أسبانيا وسائر ملوك المسيحيين ونحارب الترك » .

وكانت رسائله تترى إلى جميع الجهات بالإستعداء على الترك ، وفي سنة (١٦٠٠) أرسل (ريموند دلاتوري) إلى فيينا يطلب من الامبراطور الدخول في حلف مسيحي ضد الترك[2] .

وكان يقول : إن الواجب جمع كلمة المسيحيين وتفريق كلمة المسلمين . وفي سنة ١٦٠١ انكسر المجر ومن ذهب لنجدتهم ، ومن جملتهم دوق (مركور) والجنرال (آلدونبرانديني) ابن أخت البابا ،

---

١ - يعني : البابا .

٢ - انظر إلى قلة وفائهم بالعهود والمواثيق ، وانظر إلى سرعة تحالفهم ، وهذا شيء قديم عندهم ، يُذكِّر بتحالفاتهم في هذا العصر تجاه المسلمين .

وقتل هذان فازداد حزن البابا وشرع يلح على هنري الرابع في محاربة الأتراك وأرسل يسمعه أنه يمكن إخراج الامبراطورية من آل (أوتريش) أي عائلة النمسا المالكة وانتخاب هنري الرابع امبراطوراً وكل هذا ليحفزه على حرب حلفائه الترك ، ثم أراد أن يوفق بين هنري الرابع ملك فرنسا وفيليب الثالث ملك أسبانيا على شرط أن يتحدا في محاربة الترك ، فبينا هو يسعى في هذا الغرض إذ أطلع ملك فرنسا على دسيسة بحقه كان يدسها ملك اسبانيا فحبط بها الاتفاق .

ولم يقتصر البابا اكليمنضوس في مناصبة الترك العداء على العوامل الخارجية ، بل مَدَّ يده إلى داخل سلطنة آل عثمان وذلك كما يأتي :

كان في السلطنة العثمانية رجل من أعاظم أركانها يقال له : سنان باشا ، اشتهر اسمه شرقاً وغرباً ، وكان هذا الوزير العظيم طليانياً مسيحياً اسمه (سيبيون سيكالا) وقع في أسر الأتراك فأسلم وحسن إسلامه ، لأنه كان مسلماً عن عقيدة لا عن غرض دنيوي وأسعفته فيما بعد ذلك الأقدار إلى أن صار من أعاظم رجال السلطنة العثمانية ، وأصبح هنري الرابع ملك فرنسا يراجعه في المهمات التي له في الشرق، فالبابا اكليمنضوس الثامن فكر في إعادة سنان باشا إلى المسيحية ، وأرسل إليه الراهبين اليسوعيين (انطونيو وفنسنرو سيكالا) اللذين كانا من أسرته ، وقد نشر (رينيري) عن هذه القصة وثائق كانت مجهولة ، وعلم منها أن لوكريس والدة سنان باشا كانت شاهدت ابنها في (مسّيني) وراودته على أن يعود إلى النصرانية وذلك سنة ١٥٩٨ ولما لم

نظفر ببغيتها ، راجعت البابا في الأمر فأجابها بكتاب هنأها فيه على مساعيها وقال لها : إنه يرجو رجوع سنان لا إلى أمه الدموية فقط بل إلى أمه الروحية الكنيسة الكاثوليكيه . وبعد ذلك بسنة أنفذ البابا انطونيو سيكالا إلى مجريط[١] يلتمس من ملك اسبانيا المعاضدة على إسقاط السلطنة العثمانية التي سيقوم سنان باشا ثائراً عليها بعد رجوعه إلى النصرانية ، وكان برنامج البابا أن تتولى أسرة مسيحية عرش الأستانة[٢] وأن يحمل شعوب تركيا على المسيحية ، ووعد البابا سنان باشا بأنه إن ثار على تركيا يكون من ورائه ملك أسبانيا وجميع ملوك المسيحيين وأن جميع ما ينتزعه من أيدي الترك من الولايات يصير إقطاعاً له داخلاً في ذلك القسطنطينية وغير مستثنى سوى الأرض المقدسة ، ودوقية أثينا اللتين ستكونان لملك اسبانيا ، وبلاد المجر وترانسلفانيا التي ستؤول إلى الامبراطور ، وكتب البابا إلى سنان باشا في الخامس من ابريل ١٦٠٣ كتابين في أحدهما يعده بأنه يكون ملكاً على البلاد التركية التي يفتحها على شرط أن يحول أهلها إلى العقيدة الكاثوليكية ، ويؤكد له بأنه في هذا الوعد على وفاق مع الامبراطور رودلف ، ومع ملك اسبانيا اللذين سينجدانه بجيوشهما ، وهو يدعوه أن يجحد الدين الإسلامي أمام

---

١ - هي مدريد عاصمة اسبانيا الآن ، بناها الأمير محمد بن عبدالرحمن في القرن الثالث للهجرة .

٢ - أحلام سخيفة تعششت في رأس هذا البابا .

٣ - يريد حملهم على ذلك بالقوة كما حصل لمسلمي الأندلس (ش) .

شهود ، وهكذا يغسله من آثامه السالفة ، وأما الكتاب الثاني ففيه تذكير سنان بوعده بالرجوع إلى حضن الكنيسة[١] ، ووعده بأنه إن ثار على السلطان يكون الامبراطور وملك اسبانيا وجميع ملوك المسيحية ظهراء له ، ويختم البابا كتابه بوضع سنان باشا وعائلته تحت حماية الرسولين بطرس وبولس . والحق أنه لو تم هذا المشروع لكان ضربة شديدة على تركيا ، لكنه لم يتم[٢] وسنة ١٦٠٣ حدث شغب في الأستانة ، ومات محمد الثالث ثم في السنة نفسها فتح الشاه عباس كرجستان ، فزحف سنان باشا في ١٥ يونيو سنة ١٦٠٥ على رأس جحفل جرار إلى أرمينيا فهزمه العجم هزيمة شنيعة في ٦ أغسطس ١٦٠٥ ، فانحاش سنان باشا إلى ديار بكر حيث كان ابنه محمود والياً ومات غماً في تللك السنة ، وكان له عدة أولاد منهم واحد روى (هامر)[٣] أنه كان قد تزوج بأخت السلطان محمد الثالث . وأما الباب أكليمنضوس الثامن فمات قبل سنان باشا بتسعة أشهر خائب الأمل فيما حلم به .

---

١ - إن كان يقصد أن سنان وعده بالرجوع إلى الكنيسة فلا أظن إلا أنها فرية من هذا البابا وخدعة كي يشكك الدولة العثمانية به .
وهذه القصة مع سنان باشا تذكرنا بجهل الأوربيين بهذا الدين كجهل هذا البابا فإنهم لا يعلمون أن الإيمان إذا دخل قلب رجل فإنه يكره أن يعود للكفر كما يكره أن يُلقى في النار .

٢ - هذا تعليق من الأمير شكيب ، ولكن المشروع في أصله من خيال مريض ، فإنه لو فرضنا أن سنان باشا خان الدولة العثمانية فإنه لا يستطيع أن يقلبها دولة نصرانية كما يتخيل (البابا) .

٣ - مؤرخ للدولة العثمانية .

المشروع التاسع والعشرون

وهو مشروع الأب (كوموليو) وتاريخه سنة ١٥٩٤م ، وكان هذا القسيس مكدوني الأصل[١] عيّنه البابا غريغوريوس الثالث زائراً رسولياً للكنائس اللاتينية في تركيا الأوربية ، وكان بحسب قولهم محمود السجايا ، ثاقب الفكر ، عالي الهمة ، لا يعرف التعب ولا الملل إلا أنه قضى حياته يتعقب فكرة الإنتقاض على الترك ودحرهم إلى آسيا .

ومشروع كوموليو مشتق من مشروع البابا أكليمنضوس الثامن إلا أن فيه معلومات تستحق الذكر ، فهذا القسيس أرسله البابا إلى موسكو ، فمرّ بألبانيا وترانسلفانيا وكان بيده مراسيم من البابا إلى ملوك النصارى فيها بيان خطر الترك ، وتوصية لهم برفض كل معاونة للترك ، وإن لم يمكن الرفض البات فتأجيلها أو وضعها في شكل سطحي فقط ، وكان كوموليو مأموراً أن يعرف : هل في وسع الفلاخ والبغدان والقوزاق أن يثوروا على الترك أو لا ؟ وإن طلب القوزاق مالاً للثورة فكان كوميوليو مأموراً أن يعدهم باثني عشر ألف فلورين ، لكن على شرط أن لا تؤدى إليهم إلا إذا دخلوا بلاد العدو[٢] . وبعد أن طاف في هذه البلدان أرسل إلى البابا بتقرير يقول فيه أن بلاد البلقان يمكن أن يجمعوا أربعمائة ألف

---

١ - مكدونيا : إقليم هو جزء من الإتحاد اليوغسلافي السابق استقل أخيراً ، وبقية الإقليم جزء من شمالي اليونان .

٢ - ما أطبق هذه الدسائس على وصايا الإنجيل الذي يبشر به هذا القسيس ! (ش) .

مقاتل ، ويرى أن الواسطة لإثارة هذه الأمم هو أن تبدأ روسيا بالزحف لقتال تركيا .

قال دجوفارا : يظهر من هنا أن الأب كوميليو كان عظيم الإيمان ، سريع الثقة[١] ، ويظهر من مطالعة تقاير كوميليو إلى الفاتيكان أن أمير البغدان رضي بالدخول في الحلف المسيحي ضد تركيا ، وأما أمير الفلاخ فامتنع ، وكان هذا الأمير هو الأمير الكبير ميشل الملقب بالشجاع . وقد صار فيما بعد أميراً على الفلاخ والبغدان وترانسلفانيا معاً .

واجتهد كوميليو كل الإجتهاد في منع الصلح بين النمسا وتركيا . ولكنه أخفق في موسكو وفي بولونيا وعند القوزاق ، وآب إلى روما سنة ١٥٩٨ ومات في أوائل القرن السابع عشر .

المشروع الثلاثون

وهو المنسوب إلى (لوتسيو) وتاريخه سنة ١٦٠٠ ويوجد نسخة خطية من كتاب لوتسيو في مكتبة نابولي هو مقسوم إلى قسمين : الأول يبحث فيه بحثاً فلسفياً عن عظمة الممالك وسقوطها ، ويذكر الآشوريين والميديين والفرس والمكدونيين واليونايين والرومانيين وغيرهم ، ويقول إن المسلمين سيصيبهم ما أصاب غيرهم ، وأن سفينة الإسلام العظيمة

---

١ - عبارات مهذبة : وكأنه يريد أن يقول أن الأب كوميليو فيه غفلة ، فهو يصدق كل ما يقال له .

المشحونة بالذخائر والنفائس لا بد أن تغرق مثل غيرها وكما ذهبت دولة الرومان ، ستذهب دولة الإسلام[١] .

والثاني يبحث فيه عن آل عثمان ، ويذكر تاريخ سلطان سلطان منهم ويقول إن السلطان مراد دخل إلى بلاد اليونان من آسيا ومعه (٦٠) ألف مقاتل ، وأن جيش بايزيد كان (٣٠٠) ألف ، وأن جيش مراد الثاني كان (١٠٠) ألف ، وجيش محمد الفاتح (٣٠٠) ألف ، وأن سليمان حاصر فيينا بـ (٥٠٠) ألف ، ومن بعد فشله أمام فيينا لم تزل قوة آل عثمان في هبوط .

قال : وقد كان قيام السلطنة الرومانية بالفضيلة وبحسن الطالع الذي كان يرافق الفضيلة ، فأما السلطنة العثمانية فليس لها أساس إلا حسن الطالع لا غير[٢] ولولا الإختلاف بين الروم واللاتين ما أمكن الترك أن يدخلوا أوربا . ثم أخذ لوتسيو يشرح حالة الدولة العثمانية وما طرأ عليها من الفساد ، وقال إن السلطان لا يراه أحد ، وهو عاكف على لذاته وأن الوزراء لا شغل لهم إلا نهب الرعية ، وأن الديوان ليس بمجلس جدّ ، بل كل مَنْ فيه لا يعرفون إلا التملق للسلطان ، وكم من

---

١ - إن صاحب هذا المشروع لا يفقه التاريخ ، وأن ديناً مثل الإسلام لا تنتهي دوله ، وقد عرف هذا الأمر المؤرخ توينبي عندما تكلم عن الحضارة الإسلامية .

٢ - لاشك أنه كذاب أشر ، فإن أي كاتب محايد يعلم أن السلطنة وفي بداية أمرها خاصة كان فيها رحمة ولم يقع ظلم للشعوب التي خضعت لها ، بل كانت مبالغة في إعطاء الحرية لهذه الشعوب بينما الدولة الرومانية دولة تسلطية استعمارية .

وزير قتله السلطان لأنه تجرأ على إبداء رأي مخالف لرأيه ، وهكذا ساد في الدولة الكذب والنفاق واستفاض النكث بالعهود(١) .

قال دجوفارا : وكان لوتسيو يورد هذه الإنتقادات بحق الدولة العثمانية ثم ينسى غرضه فيعود فيورد أمثلة لها عند سائر الدول ، وذكر أن مناصب الدولة صارت تطرح بالمزاد ، وأن الجنود كثيراً ما تبقى بدون أرزاق بينما السلطان ووزراؤه وقرناؤه منغمسون في الترف . وبعد أن وصف كثيراً من مساوىء أحوال تركيا انتهى إلى القول بأنه محكوم عليها بالإنقراض . ولكنه من جهة ثانية كان يئن من اختلاف المسيحيين بعضهم مع بعض ، ويقول أن سبب بقاء تركيا إلى ذلك الوقت هو تنازعهم ، وكان يدعوهم إلى الإتحاد ويبين لهم سهولة التغلب على تركيا ، ويقيم الأدلة على أن محاربة تركيا حق وعدل ويقول : أي شيء أفظع من وجود قبر المسيح في أيدي غير المؤمنين .

وكان رأي لوتسيو على المسيحيين هو المهاجمة لا المدافعة ، وقال إنهم إذا كانوا بعيدين عن أوطانهم ازدادت حماستهم ، ثم أشار لوتسيو بأن يتولى رودلف الامبراطور الجرماني قيادة الحملة التي يجب أن تزحف إلى تركيا ، وأما ملك أسبانيا فيمكنه أن يصلي الحرب في

---

١ - من الإنصاف القول أن الدولة العثمانية في هذه المرحلة من عمرها كانت في أضعف أحوالها ، وقد تفشت الفوضى والرشوة وتسلط الإنكشاريون على السلاطين ، إلا إنه قيض للدولة سنة ١٠٦٧ هـ ١٦٥٦ م وزيراً كبيراً وهو محمد باشا كوبريلي استعاد للدولة بعض هيبتها وقوتها وكذلك ابنه أحمد الذي تولى الوزارة سنة ١٦٦١ .

أفريقية، ويطرد الترك منها[١] وأنه يجب على البابا أن يجهز الأساطيل لمحاربة الترك في المجر ، وقد ثبت أن التغلب على الترك إنما يكون في البحر[٢] . وقال إنه يجب على جمهورية البندقية أن تدخل في هذه الصليبية ، إن لم يكن تحمساً في الدين فأخذاً بالثأر في (كورفو) و (كتارو) و (ستريجو) و (زارة) [٣] وغيرهما مما انتزعه الأتراك من يدها ومما كان يهّون به صاحب المشروع من أمر الترك قوله أنه ليس عندهم قُوّاد مهرة وأن الانكشارية[٤] والسباهية[٥] أصبحوا لا ينقادون لقوادهم وأن لا أمل لتركيا بنجدة أحد من جيرانها ، وأما غنائم الحرب ، فقد ترك لوتسيو تقسيمها للامبراطور ، وجعل لملك اسبانيا حقاً في الإستيلاء على أفريقية[٦] .

---

١ - يعني الجزائر وتونس وليبيا .
٢ - يشير إلى موقعة ليبانت (ش) .
٣ - جزر وبلدان على سواحل المتوسط والإدرياتيكي أخذتها الدولة العثمانية من جمهورية البندقية .
٤ - كلمة تركية (يك جري) وتلفظ : (يني تشاري) ثم صارت تلفظ بالعربية (انكشاري) ومعناها : الجيش الجديد ، وأصل الفكرة هو أخذ الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن أقوامهم وتربيتهم تربية إسلامية كجنود للسلطان والدولة العثمانية وكان هذا الجيش في البداية (وهم من المشاة) من أكبر عوامل قوة الدولة ولكنهم تحولوا في نهايتها إلى جيش مشاغب مخرب، حتى أجهز عليهم السلطان محمود عام ١٨٢٦ بسبب عصيانهم وتعديهم.
٥ - فرق الخيالة ، وكلمة : سباهي معناها : الفارس .
٦ - إنها أوهام من لا يدرك طبيعة الشعوب الإسلامية .

قال دجوفارا : إن هذه الأفكار التي خطرت لصاحب هذا المشروع كانت منتشرة جداً في أوربا في النصف الأول من القرن السابع عشر .

المشروع الواحد والثلاثون

وهو مشروع (شافيني) وتاريخه سنة ١٦٠٦ ، وكان هذا الرجل مُنجماً ، ولد في بون (فرنسا) وقد كتب كتاباً يدعو فيه النصرانية كلها إلى الإتحاد على الأتراك ، ويعدّ الممالك التي ينبغي أن تدخل في هذه العصبة ، وكان يتألم أشد الألم لرؤية برابرة كالأتراك مسيطرين على المسيحية[1] ويقول أن السبب في ذلك كله إنما هو الإختلاف الذي بين ملوك النصرانية ، والذي جعل الجيش التركي يمشي إلى الأمام في أوربا كما في آسيا وأفريقية .

ومما جاء في هذا الكتاب في مقام التقريع للمسيحيين أن جنودهم لا تعرف إلا اتباع الشهوات البدنية وأن معسكراتهم فيها من النساء أكثر مما فيها من المقاتلة . وجاء فيه أيضاً أنه يجب طرد التركي إلى أقاصي آسيا الصغرى ويجب حمل الأتراك على الديانة الكاثوليكية .

وأما تقسيم بلدان الإسلام فهو كما يلي : الامبراطورية[2] يكون لها امبراطوريتا الغرب والشرق وتدخل في ممالكها بلاد المجر وتراقيا ،

---

١ - ما فعله النصارى في اسبانيا وليبيا والجزائر يدل دلالة واضحة من هم البرابرة ، الأتراك أم أهل أوربا ؟ .

٢ - الجرمانية .

ويكون لملك فرنسا بلاد الأناضول والشام ، ويكون للإنكليز مصر ، ويكون للأسبانيون أفريقيا ، ويكون للطليان جميع مراسي البحر المتوسط وجزائره ، ويكون للبولونيين والدانمركيين والنورفجيين والاسوجيين الأقاليم الشمالية وأراضيها الخصيبة .

وكأن (شافيني) هذا نظر إلى الآتي من قبل ما وقع بثلاثة قرون ، فإن كثيراً من هذا التقسيم الذي تخيله قد تحقق بسياسة الاستعمار الأوربي الحالي .

المشروع الثاني والثلاثون

وهو مشروع (سولي) وتاريخه ١٦٠٧ و قد كانت ولادة هذا الرجل سنة ١٥٥٩ ووفاته سنة ١٦٤١ واشتهر إلى الدرجة القصوى بمعارفه الإقتصادية ولهذا تولى أمور فرنسا المالية ، ومشروعه منسوب إلى هنري الرابع ملك فرنسا ، إلا أن تحريره كان من قريحة سولي نفسه ، وقد اختلف الناس في هذه القضية فذهب (درايبرون) إلى أن هنري الرابع هو الذي فكر فعلاً بافتتاح السلطنة العثمانية وتقسيمها وتنظيمها وأن هذا الرأي هو السائد في وقته .

وذهب المسيو (بوارسون) صاحب تاريخ هنري الرابع أن هذا الملك كان فكر في تأليف مجلس عام يفصل خصومات الممالك المسيحية بدلاً من فصلها بالسلاح [1] ، وهذه الفكرة الأولى هي لملك فرنسا ، فجاء

١ - انظر كيف يفكر هذا الملك في مصلحة الشعوب الأوربية .

سولي وفرّع عنها ما أوصلته إليه مخيلته من الترتيبات والتشكيلات وقد جاء في كتاب سولي الذي نحن بصدده الموسوم بـ (تدابير هنري الكبير السلطانية الحكيمة) أن غرض هذا الملك المحارب السياسي الكبير كان تأسيس شيء أشبه بجمهورية تكون دائماً سلمية مع المسيحيين ، وحربية بإزاء غير المؤمنين . وكانت الجمهورية الحلفية الأوربية تحسب تخيل سولي عبارة عن خمس عشرة حكومة : السلطنة الجرمانية ، مملكة البابا ، فرنسا ، اسبانيا ، انكلتره ، المجر ، بوهيميا[١] ، بولونيا ، الدانمرك ، إسوج ، لومبارديا ، البندقية ، الجمهورية الإيطالية[٢] ، هولاندا ، سويسرة[٣] .

فأنت ترى أنه ليس لروسيا ذكر في هذه المجموعة ، وذلك لأنهم كانوا يعدونها يومئذ مملكة آسيوية[٤] .

وقد جعل الفلاخ والبغدان تابعتين للمجر ، ولم يشر إلى تقسيم

---

١ - هي أراضي التشيك وقد شكلت مع سلوفاكيا دولة واحدة ، ثم انفصلت بعد انهيار الإتحاد السوفييتي .

٢ - لومبارديا ، البندقية ، ممالك ايطالية ككانت مستقلة ثم توحدت مع باقي الإمارات لتشكيل دولة ايطاليا الحالية .

٣ - كأنه كان يخطط لحلف الأطلسي والسوق الأوربية المشتركة ، وأما خياله عن دولة سلمية للنصارى ، وحربية على غير النصارى ، فكأنه يصف الدولة الإسلامية التي يجب أن تكون تسلماً للمسلمين حرباً على الكافرين .

٤ - مازالت هذه النظرة للروس ، وهم ينتظرون منهم التحول إلى الرأسمالية الغربية حتى يفكروا في إلحاقهم بأوربا الغربية .

الولايات التركية الأخرى ، وبالجملة فالترك نظير الروس لم يدخلهم سولي في الجمهورية الأوربية المسيحية . ويكون جيش هذه الجمهورية بالغاً ٨٠٠/ ٢٧٣ جندي و ١١٧ سفينة حربية ، وعلى كل من هذه الممالك الخمس عشرة المتحدة تأليف جيش متناسب مع قوتها لقتال غير المؤمنين (أي المسلمين) ولما كانت الممالك المجاورة لتركيا أشد تعرضاً للخطر ، فيشير سولي بتقوية بلاد المجر وتحصينها ، وتحصين فيينا ، وكرواسيا[١] وسائر بلاد النمسا .

وقد ذهب سولي إلى انكلترا ، وقابل الملكة (اليصابت) ونال منها الموافقة على هذا المشروع وذلك سنة ١٦٠١ وكذلك تم الإتفاق عليه مع البابا ، وانعقدت به معاهدة ، وكان أربعة من الأمراء المُنتَخبين[٢] في ألمانيا : أمير (البالاتينا) و (براندبورغ) و (كولن) و (ميانس) وكذلك دوق سافواي ، وجمهورية البندقية قد اطلعوا على هذا البرنامج ووافقوا عليه ، وممن وافق عليه أيضاً ملك بولونيا وأمراء بوهيميا ، وترانسلفانيا ، والمجر ، ولم يبق معارضاً إلا النمسا .

قال دجوفارا : وقد كان هنري الرابع هو أول ملك فكر في إقامة تحكيم دولي بين الدول المسيحية ، وبقيت هذه الفكرة ثلاثة قرون بعد

---

١ - كرواتيا .

٢ - بكسر الخاء وهم أمراء ألمانيا الذين ينتخبون الإمبراطور (ش) .

هنري الرابع حتى تحققت بتأسيس محكمة لاهاي قلنا[١] : وقد تبع محكمة لاهاي تأليف عصبة الأمم التي هي أكبر وأشمل محكمة دولية عرفها التاريخ ، وقد كانت بنت فكر (ويلسون) رئيس جمهورية أمريكا ، ولولا أطماع الدول التي خرجت غالبة من الحرب العامة[٢] لكانت أتت بفوائد لا تحصى للمجتمع البشري[٣] .

ولقد انتهى مشروع سولي هذا المنسوب إلى هنري الرابع بالحبوط ، لأن هذا الملك تحقق فيما بعد استحالة تطبيقه بالفعل .

المشروع الثالث والثلاثون

وهو مشروع طلياني ، وتاريخه سنة ١٦٠٩ ، وأصله أن فرديناند دوق توسكانا[٤] ساق اسطولاً وأنزل جنوداً في جزيررة قبرص ، وكان مراده في ظاهر الحال الغارة على فلسطين للإستيلاء على الأراضي المقدسة ، ولكن الحقيقة أنه كان ينوي احتكار تجارة سورية ومصر ،

---

١ - شكيب أرسلان .

٢ - الأولى .

٣ - كيف تأتي بفوائد للمجتمع البشر ي ، ولم تؤسس إلا لمصلحة الدول الكبرى التي خرجت منتصرة ، ولذلك لم تفلح في شيء ، وقامت على أنقاضها هيئة الأمم ، وكانت كسابقتها ، فلم نسمع أنها استطاعت في يوم من الأيام خدمة الشعوب الضعيفة وكيف يخدع بها الأمير شكيب وهو الذي كتب عن الغرب وأوربا ما يشعر بمعرفته لهؤلاء القوم ! .

٤ - إمارة إيطالية شمال غربي روما ميناؤها ليفورنو .

ومن قبرص أخذ دوق توسكانا يراسل الأمير فخر الدين المعني أمير لبنان[١] وعلي باشا جنبلاط والي حلب[٢] .

نقل دجوفارا عن (غالوزي) صاحب تاريخ درقية توسكانا أن الدوق فرديناند اتفق في هذا التدبير مع البابا ، وأرسلا الوزير (ليونسيني) ومعتمداً آخر اسمه (ميشال أنجلو كوراي) إلى والي حلب ليطلعا لهم على الأحوال هناك ، ويلقيا الفتنة بين المسلمين تعجيلاً

---

١ - فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف ١٥٧٢ - ١٦٣٥ ، كون قوة عسكرية كبيرة من الدروز وبقايا فلول العساكر ، وهزم قوات الدولة العثمانية في البداية ، تحالف مع توسكانا الإيطالية ، وانتزع كسروان وبعلبك ووصلت سلطته إلى عجلون ونابلس وصفد وقد أجاز في سلطته دخول الإفرنج إلى لبنان .

٢ - اتصلت الإمارات الإيطالية ببعض الكاثوليك السوريين ليكونوا أداة اتصال مع علي باشا جانبولاد الكردي صاحب كلس وإعزاز قرب حلب وكان ثائراً على الدولة هو وفخر الدين المعني ، وبدأت أخبارهما تصل إلى الدوائر السياسية الفلورنسية ، فرأت فيهما أداة لضرب الدولة العثمانية ، ففي سنة ١٦٠٧ أوفد فرديناند الأول أمير توسكانا إلى سورية رسولاً حلبي الأصل ، وسلمه رسائل وهدايا لجانبولاد وفخر الدين ، وشاه العجم ، وعقد أمير توسكانا هذا اتفاقاً مع فخر الدين يتضمن حماية التجار الإيطاليين في الموانيء السورية التابعة لفخر الدين ، على أن يُزود الأخير بالأسلحة والذخائر ، واستصدار أمر من البابا إلى موارنة لبنان بأن يقفوا إلى جانب فخر الدين .

وفي سنة ١٦١٣ وجهت الدولة العثمانية قوة برية وبحرية هزمت فخر الدين الذي التجأ إلى صديقه أمير تسكانا ، ثم عاد إلى لبنان ، فجردت عليه الدولة جيشاً قضى عليه قضاءً تاماً ، وأخذ بعدها إلى استامبول وأعدم عام ١٦٣٥

انظر : د. أحمد عزت عبدالكريم / دراسات في تاريخ العرب الحديث / ٧٥ ، عبدالعزيز العظمة / مرآة الشام / ١٧٤ .

لبوارهم في ٢٦ سبتمبر سنة ١٦٠٧ عقدا مع جنبلاط معاهدة ذات ثلاثين بنداً منها بند يتعهد به جنبلاط بتمكين الإفرنج من الميناء الذي يختارونه لتنزيل جنودهم[١] ، وكان أروام قبرص وعدوا أيضاً بالثورة على الترك ، وبينما الأمور جارية على وفق المراد إذ مات الدوق في ٧ فبراير في سنة ١٦٠٩ ومات به المشروع ، وأما برنامج هذه الغزاة فقد حرّره رجل طلياني في القاهرة في السنة نفسها ، وقد كشف هذا البرناج المسيو (جورغا) أحد أساتيذ جامعة بوخارست ، وقد بدأ محرر هذا المشروع نظير غيره ممن عالجوا الموضوع نفسه بالتحسر على عدم اتفاق المسيحيين ، وبالحث على انتهاز هذه الفرصة الموافقة ، وقال إنه بعد موت الدوق التوسكاني لا يوجد غير ملك فرنسا للقيام بحملة كهذه ، وإن أهم شيء إنما هو ضرب الترك في مركز معيشتهم ، فيجب لذلك الإستيلاء على الإسكندرية فإذا أخذت من يدهم هذه المدينة سقطوا .
ومن هنا يعلم أن المشروع مبني على أساس تجاري مثل مشروع (ساندو)[٢] وأما كيفية أخذ الإسكندرية فستكون بزعمه بسيطة : يدخل المقاتلون بأزياء تجار ، حتى إذا صاروا داخل البلدة استولوا على الأبراج الأربعة التي تحميها ، وذلك لكون الحامية التي فيها ضعيفة جداً وبعد الإستيلاء على الإسكندرية يزحف المسيحيون إلى رشيد ويسيرون إلى

---

١ - انظر : أيعيد التاريخ نفسه ؟ لكاتب هذه التعليقات .

٢ - كيف هذا وقد قال قبل قليل أن أمير توسكانا اتفق مع البابا وأرسلا مندوباً إلى حلب لإثارة الفتنة بين المسلمين ، واتفاقهم مع قبرص للثورة .

قبرص حيث الأروام مستعدون أن يثوروا على الأتراك ، وكذلك يجب الإستيلاء على برقة ، وفي هذه الحرب يمكن الإعتماد على الأمير فخر الدين صاحب صيدا ، وعلى الموارنة وعلى أهل جبل لبنان ، وهكذا ينتهي الأمر بفتح بيت المقدس ثم تسترجع الدول المسيحية ما أخذه منها الترك وتسترد البندقية المورة وألبانيا واليونان . . . الخ .

المشروع الرابع والثلاثون

وهو مشروع (اسبرنشاد) وتاريخه ١٦٠٩ ، وهو تقرير مقدم إلى ولي عهد فرنسا ، ومآله كمآل غيره من طلب اتحاد ملوك المسيحيين ، وأن أحسن طريقة لحطم قوة الترك هي الحمل عليهم من البحر ، وأن يزحف إليهم مع ذلك جيش بري ، وأن تُثار الأهالي الذين في داخل السلطنة العثمانية وتوقد حرب أهلية بينهم ، وأن يعقد اتفاق مع العجم والتتر والمسكوب[1] وليس في هذا المشروع برنامج مفصل ، بل هو أشبه بأماني منه ببرنامج .

المشروع الخامس والثلاثون

وهو مشروع (مينوتو) وتاريخه سنة ١٦٠٩ ، وهو كمشروع سولي وكمشروع (بريف) من آثار أفكار هنري الرابع الذي طالما فكر في إصلاء الترك حرباً صليبية .

---

١ - أي الروس نسبة إلى موسكو ، فأنت ترى أن الأوربيين يريدون التحالف مع كل أعداء الدولة العثمانية حتى يضمنوا النصر عليها .

وقد عثر عليه (زنكيسن) في أوراق نظارة الخارجية الإفرنسية ونشره كله في الصفحة ٨٥٩ من الجزء الثالث من تاريخه للسلطنة العثمانية ، وكان أصل نصه باللغة الإيطالية . وكان مينوتو هذا رومياً من جزيرة كريت[١] وقد استهل كتابه بنداء إستغاثة من نصارى الشرق إلى نصارى الغرب لينقذوهم[٢] وأكد أن جميع الأروام حاضرون لمبايعة ملك فرنسا ملكاً عليهم .

قال (زينكسن) إن هنري الرابع لم يكن ممن يتهافت على أي اقتراح ليتهافت على قبول برنامج مينوتو ، ولكن مما لا مشاحة فيه أنه في أواخر عهده نقم على الأتراك في نفسه .

---

١ - جزيرة شهيرة في البحر المتوسط ، ذات موقع حربي مهم ، لوجودها عند مدخل أرخبيل بحر أريجه الذي يؤدي إلى مضيق الدردنيل والبوسفور ، فتحها المسلمون سنة ٢٣٠ هـ بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي ، قائد الربضيين الذي هم من سكان قرطبة وقد طردهم الأمير الحكم بن هشام الأموي ، فخرجوا في سفن ونزلوا الإسكندرية ثم تركوها وفتحوا هذه الجزيرة ، وبقي المسلمون بها حتى سنة ٣٥٠ هـ حين استعادها الروم في عهد القائد نقفور ، ثم احتلها البنادقة فترة طويلة إلى أن استعادها العثمانيون عام ١٠٧٩ هـ الموافق ١٦٤٥ م في عهد السلطان إبراهيم ، وانتهت السيادة العثمانية عليها عام ١٣٣١ هـ ، وعاصمتها كانديا وهي محرفة عن (الخندق) انظر : أطلس تاريخ العالم / ٢٨٧ ومعجم الأسرات الحاكمة / ١٠٩ .

٢ - هذه قصة مفتعلة وأكذوبة مفضوحة ، فإن من عنده أدنى مسكة من عقل وحياد يعلم أن الدولة العثمانية لم تؤذ النصارى بل كانت تعطيهم امتيازات أكثر مما يستحقون ، وما يزال أمثال هذا الكذب السمج تلوكه ألسنة المستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام والمسلمين .

المشروع السادس والثلاثون

وهو اقتراح (برتوشي) وتاريخه سنة ١٦١١ وهو تقرير محرر بالطلياني محفوظ في (اينسبروك) ومحرره (فرانسكو انطونيو برتوشي) قدمه في ٦ ابريل سنة ١٦١١ إلى ملك نابولي ، وبعث بنسخة منه إلى الأرشيدوق مكسيمليان النمساوي ، وهو يشير بالإستيلاء على قلعتي اشقودرة وكروايا من ألبانيا لأنهما مفتاح مكدونية ، ويقول إنه بعد ذلك يمكن الإستيلاء على قلعة كليسا وقلعة كانيسا وإثارة (٣٠) ألف أرناؤطي [1] و ٣٠ ألفاً من أهل بوسنة ، واستجاشة المجر ، عندما تقوم هذه الثورات كلها يتحد أمراء ايطاليا والبنادقة ، ويزحفون على دراج ودلسينو وانتيفاري وغيرها ، ثم يزحف البولونيون والقوزاق من جهة ثانية على الأتراك فيضطر هؤلاء إلى جمع قوتهم البحرية إلى عاصمتهم ، ويخلو الجو للقوة المسيحية .

المشروع السابع والثلاثون

وهو المنسوب إلى الدوق (شارل دونفير) وتاريخه سنة ١٦١٣ - ١٦١٨ ، وهذا الدوق هو ابن (لويس دوغونزاع) وكانت جدته من آل باليولوغ ملوك بيزنطة ، فهو ضارب بعرق ثابت إلى مملكة القسطنطينية وكان من جهة الأب أميراً طليانياً ، ومن جهة الأم ألمانياً ، ومن جهة

---

١ - ألباني .

الجدة يونانياً بيزنطياً ، ومن جهة المنصب افرنسياً ، وهكذا اجتمعت فيه عدة خصال تؤهله أن يتولى كبر هذه الحملة على مملكة آل عثمان ، وكان ورد علية دعوة لهذا الأمر من أهل المورة ووعدوه بخمسة عشر ألف مقاتل ، وأرسل إليهم ثلاثة معتمدين عقدوا معهم اتفاقاً ، وفي ١٨ سبتمبر سنة ١٦١٤ أرسل وفداً آخر جمع أناساً من زعماء الصرب والأرناؤط والبوسنيين والهرسيكيين والبلغار والدالماتيين[١] وتحالفوا على محاربة الترك ، وكانوا يرجون عضد أمير الفلاخ والبغدان ، وكان البابا وملك اسبانيا عاضدين لهذا المشروع ، وكان الدوق دونيفير اتفق في هذا الأمر مع الكردينال ريشليو وزير فرنسا الشهير ، ونقل (ناني) في تاريخ جمهورية البندقية أن الدوق نيفير كان ذهب إلى روما واستمد البابا بولس ، وهذا قد استنفر جمهورية البندقية باعتبار أنها أقوى دولة بحرية في ايطاليا ، فالبنادقة أجابوا البابا أن العمل ليس بسهل ، وأنه لا ينبغي الدخول فيه إلا بعد التحوط التام ، وبعد تمالؤ ملوك النصارى على الترك فعلاً لا قولاً[٢] ، وقالوا : إن العدو الذي يريدون مهاجمته عدو شديد المراس وهكذا لم يتم للدوق دونيفير ما أراد ، لأن جميع المساعدات التي حصل عليها لم تتجاوز القول والوعد والتمني ، وحبط

---

١ - تسمى أيضاً دالماسيا على الساحل الغربي لبحر الادرياتيكي وهي داخلة الآن في دولة كرواتيا .

٢ - كان البنادقة يعلمون قوة الدولة العثمانية البحرية ، كما أن لهم مصالح تجارية قوية مع ولايات الدولة وخاصة بلاد الشام ومصر .

المشروع بدون أن يكون له أدنى أثر سوى زيادة حذر الترك الذين كانت ترامت إليهم الأخبار عما ينوونه بحقهم .

المشروع الثامن والثلاثون

وهو مشروع الأب يوسف مستشار الكردينال ريشليو ويده اليمنى وتاريخه سنة ١٦١٥ إلى ١٦١٨ ، قال (زنكيسن) إن ريشليو كان قد سعى في التأليف بين فرنسا واسبانيا لأجل القيام بحرب صليبية تنتهي بنصب أمير من بيت ملك النمسا من الفرع الأسبانيولي ملكاً على القسطنطينية ، إلا أن رجلاً اسمه (جاك بيير) كان في خدمة الدوق دو نفير قد أطلع على هذا السر وأفشاه بحجة أنه هو إفرنسي ، وأنه لا يهون عليه أن يجلس أمير اسبانيولي على عرش القسطنطينية ، ولما سمع البنادقة بخبر هذه المؤامرة قاوموها وعدوها مكيدة عليهم ، وهكذا حبط

مشروع الأب يوسف مستشار ر
يوسف المذكور وطعن فيه ، وذكر
متمسكاً بالمشروعات المستحيلة
تنصير المسلمين ، واستخلاص الا
تدابيره أخذ ليشفي غليله يرسل
قصيدة سماها (التركية) وكتب
ضد الأتراك ، وتبيين مصالح ملو
الأب يوسف لا يفتر عن الكتابة
سكوتها وعدم مهاجمتها للمسلم

يشليو ، وقد تكلم فولتير عن الأب
ه هانوتو ، فقال : إنه كان خيالياً أفاقاً
ة ، وقيل إنه قضى عمره في أملين :
أراضي المقدسة ، ولما لم يتم شيء من
المبشرين والدعاة إلى الشرق ، ونظم
في سنة ١٦١٩ كتاباً في تهيئة الحرب
ك أوربا جميعاً في حربهم ، وكان قلم
، وكان ينعى دائماً حالة النصرانية في
ين .

وكـان الأب يوسف جـاء إلى رومـا واسـتـحثّ حـمـيـة البـابا بولس الخامس ، لكن هذا كان فاتر العزم ، وبقي إلى سنة ١٦١٨ حتى أرسل دعـاة من قـبله إلى (براغ) و (تريف) و (مـيـانس) و (كـولن) و (تورينو) يستنفر الدول المسيحية إلى قتال المسلمين ، وفي ذلك الوقت كانت اسبانيا تتردد في إصلاء هذه الحرب ، فذهب الأب يوسف إلى مجريط ورجع وقد فاز بمتغاه وهو عضد الدوق دونفير في الحملة على تركـيـا ، إلا أن الخلاف رجع فنشب بين اوسـتريا وفـرنسـا ، وذهبت المساعي لتحقيق هذه الصليبية بالفعل أدراج الرياح وسنة ١٦٢٥ قرر البـابا أوربانوس الثـامن والأب يوسف إرجـاء المشـروع إلى أجل غـيـر مسمى .

المشروع التاسع والثلاثون

وهو المنسوب إلى (فاليريانو) وتاريخه ١٦١٨ وهو مشروع لا يزال مخطوطاً غير مطبوع ، محفوظاً في خزانة (انسبورغ) وهو عبارة عن كـتـاب مـتـقـدم من الراهب الكبـوشي فـاليـريانو إلى الأرشـيـدوق مكسيميليان النمساوي ومعه مذكرة ، هو يقول أن الكونت (دالتان) قد تحادث مع أمراء البلدان المجاورة للسلطنة العثمانية ، ورأى إمكان القيام بأعمال عظيمة لقهر الأتراك ، لكن يجب تمكين الجيش المسيحي من المرور ببلاد الأمراء المجاورين للترك ، وقد عقد الامبرطور وملك بولونيا والبنادقة معاهدات مع آل عثمان منها معاهدات موالاة دائمة ، ومنها معاهدات هدنة إلى مدة عشرين سنة ، ومن أجل هذا عندما

عرض الكونت دالتان على ملك بولونيا هذا المشروع أجابه بأنه لا يقدر أن يخفر ذمته ولكنه يفسح له المجال أن يمر من خليج فنلندا ويأتي من هناك إلى البحر الأسود ، وكذلك رضي ملك بولونيا بتعيين مكان من بروسيا(١) يحتشد فيه فرسان المسيحيين الذين يقصدون حرب الترك . وكان البابا وملك اسبانيا يذخران الأموال لهذه الغارة على مدة سنوات إلا أنها لم تتيسر بسبب وفاة البابا سيكتوس .

المشروع الأربعون

المنسوب إلى (سافاري دوبريف) وتاريخه سنة ١٦٢٠ ، وكان دوبريف سفيراً لهنري الرابع ملك فرنسا في الآستانه ، وكانت سفارته حافلة بالفوائد لفرنسا ، وطالما كتب إليه هنري الرابع يشكره على جلائل خدماته ، وكان لدوبريف مكانة عالية لدى السلطان محمد الثالث ، ولما قاد السلطان الجيش العثماني بنفسه إلى بلاد المجر ، كان دوبريف سفير فرنسا وريكارد سفير انكلترا في معيته ، وحضرا معه معركة (آغريا) .

---

١ - دولة قديمة ، تقع في شمال ألمانيا على ساحل بحر البلطيق وتعرف باسم مقاطعة بروسيا الشرقية ، وبعد تحقيق الوحدة الألمانية كانت الهيمنة الفعلية على الحياة السياسية للبروسيين الذين عُرفوا بقوتهم العسكرية ، ومن عام ١٩١٨ - ١٩٣٢ ظلت بروسيا محافظة على علاقتها الفدرالية ببقية الولايات الألمانية ، وبعد الحرب العالمية الثانية قسمت بروسيا بين الإتحاد السوفييتي وبولندا وألمانيا الشرقية .
انظر : الموسوعة السياسية ١/ ٥٢٩ .

وكان دوبريف من أوسع الإفرنج اطلاعاً على أحوال تركيا وكان يعلم فساد الأخلاق الذي كان قد تمكن من رجال السلطنة العثمانية ، وكان يعلم ما هناك من خلل الإدارة البالغ الدرجة القصوى ، إلى أن كتب دوبريف مرة إلى هنري الرابع ، يقول له : إن الرشوة قد وصلت في هذه الدولة إلى حد أنه لا يرجى نجاح عمل مهما كان إلا بالمال[١] وأما برنامجه المحرر لتقسيم تركيا فقد كان تأليفاً عنوانه (خلاصة بحث في أضمن الطرق لمحو سلطنة آل عثمان)[٢] وكان مع هذا التأليف وثيقة تاريخية هي معاهدة منعقدة بين هنري الكبير ملك فرنسا والسلطان أحمد امبراطور الأتراك[٣] بواسطة الموسيو (فرانسوا سافاري دوبريف) وكان هذا الكتاب ينتهي بثلاثة مكتوبات من البابا أكليمنضوس الثامن ، وأما المقدمة فكانت موجهة إلى لويس الثالث عشر وكان يقول له فيها : « في مدة الاثنتين والعشرين سنة التي قضيتها لدى الباب العالي لخدمة والدك هنري الكبير ، اعتنيت بملاحظة ما تملكه الدولة العثمانية من القوة ، وما يملكه ملوك المسيحيين من الوسائل لتوهينها ، أو القضاء عليها ، وحررت ذلك في خلاصة أقدمها الآن لجلالتك . بحيث ترى إمكان هذا العمل ، وأني أكون سعيداً بتحقيق أرائي هذه بالفعل ، وهكذا أكون خدمت ديني وخدمت جلالتك » .

---

١ - كأنه يصف أوضاعنا اليوم ! .

٢ - لاحظ هذا الغدر من السفير الذي كان له مكانة عند السلطان ؟

٣ - هذا استعمال الغربيين والمسلمون لا يستعملون هذه اللفظة (امبراطور) .

ولم يذكر دوبريف شيئاً عن كيفية توزيع أسلاب السلطنة العثمانية ، وإنما أوجب اتخاذ قرار سريع بهذا الشأن وعدم انتظار الملحمة الكبرى لأجل إصداره .

وقد جرت لهذا المشروع معارضات من جهة الساسة الذين كانوا يرون ضرورة المحالفة مع تركيا ، للوقوف في وجه الامبراطورية الجرمانية ، ومن هؤلاء المعارضين كان (لوغاي) الذي رد على (دوبريف) برسالة أوجب فيها الإتحاد بل الإتحاد التام بين فرنسا والباب العالي ، ويكفي أن أذكر من هذا الرد بعض العناوين للتعريف بمقاصده ففي الفصل الثاني يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الإلهي القديم وفي الفصل السابع يقول إن القياصرة وملوك اسبانيا وسائر ملوك المسيحيين قد اتفقوا مع الأتراك لأسباب هي أقل بالاً من الأسباب التي اتفق معهم من أجلها ملوك فرنسا ، وفي الفصل العاشر يذكر أن اتحاد فرنسا مع تركيا لا ينفع فرنسا وحدها فقط ، بل ينفع النصرانية بأسرها . وكذلك يبين هذا الرجل أنه إذا غيّرت فرنسا سياستها تجاه تركيا جاءت اوستريا وحلت محلها في صداقة تركيا ، وكذلك أسرعت اسبانيا لموادّة تركيا[١] .

---

١ - عندما تكون الدولة الإسلامية قوية ، يتنافس الغرب في كسب ودها لأن العامل الإقتصادي له أثر كبير في حياتهم ، كما وقع بين بريطانيا ودولة ماليزيا في هذه الأيام عندما رفضت ماليزيا عقود الشركات البريطانية .

من هذا التاريخ ظهر أن المصالح الدولية أصبحت هي العامل الأول في الصلح والحرب مع الأتراك[١] ، وصار الشعور الديني بالمحل الثاني وقد جاء في رسالة أخرى لأحد نبلاء بولونيا : إن الناس يتهمون فرنسا بأنها ناصرت تركيا ، ولكنهم نسوا أن فرنسا لم تكن قادرة أن تتخلص من شر اوستريا إلا بالاتفاق مع الترك .

المشروع الواحد والأربعون

وهو مشروع (فازيل لوبو) وتاريخه سنة ١٦٤٦ ، وكان هذا الرجل أميراً على بلاد البُغدان من سنة ١٦٣٤ إلى ١٦٥٣ وكان مشهوراً بكثرة الحركات ، وكان التتار سنة ١٦٤٦ شنوا الغارة على بولونيا وعلى بلاد البغدان ، وساقوا أربعين ألف أسير وفرّ الأمير المذكور وتوارى في الغابات ، ثم أخذ يترقب الفرصة للأخذ بالثأر من التتار ، فاتفق مع ملك بولونيا على التحالف مع موسكو يداً واحدة على التتار والعثمانيين وكان يرجو أن يستولي على بلاد القريم[٢] ومن هناك يغزو القسطنطينية

---

١ - الأمور مختلطة بين الديني والسياسي والإقتصادي والسياسة الأوربية لا تُفسر بهذا التبسيط .

٢ - شبه جزيرة شمال شرقي البحر الأسود ، قوي انتشار الإسلام فيها على أيدي التتار المسلمين الذين حكموها مدة طويلة ، وكانت الدولة العثمانية تساعد خانات القرم لصد حملات التوسع الروسي ، إلى أن استولى الروس عليها عام ١٧٨٣ م وبعد الثورة الشيوعية هجر أكثر سكانها من المسلمين إلى مناطق بعيدة .

وجاء يقابل ملك بولونيا في جاسي[١] إلا أن المجلس البولوني لم يوافق على تلك المؤامرات ، وأرسل البولونيون معتمداً إلى الآستانة يؤكد ولاءهم وبقاءهم على عهد الصداقة مع تركيا ، وبعد هذا سقط في يد (فازيل لوبو) ورجع يَسْفُرُ بين الباب العالي والروس ، ويتوسط في إطلاق سراح معتمدي التتار الذين كان الروس قد اعتقلوهم وفي تفريق جموع القوزاق المخيمين بقرب أزوف[٢] ، وهكذا تلاشت صليبية الأمير (لوبو) وكانت مدتها قصيرة .

المشروع الثاني والأربعون

وهو مشروع إفرنسي وتاريخه سنة ١٦٦٠ ، وقد ذكر هذا المشروع جورغا في تاريخ السلطنة العثمانية ، فقال إنه في سنة ١٦٦٠ تصالح الفرنسيس مع الاسبانيول بواسطة الكاردينال مازَرين ، وكان هذا ينوي غزو تركيا ، وترك في وصيته مائتي ألف ريال لأجل هذا الغرض ، وانتشرت في فرنسا فكرة الحرب الصليبية وأخذ فرسان البيوتات يتسابقون في هذا المضمار ، وكان فرسان مالطة والبابا ودوق توسكانا قد حشدوا اسطولاً مركباً من اثنتين وثلاثين سفينة وست بوارج ،

١- عاصمة ولاية البغدان ، وتسمى ياسي ، وتقع الآن في الشمال الشرقي من رومانيا ، وكانت تسمى عند الأتراك (ياشي) . انظر : تاريخ الدولة العلية / ٢٩٢ .

٢- مدينة تقع في الشمال الشرقي من بحر آزوف وهو الخليج الكبير الواقع شمال البحر الأسود ، ويطلق على هذه المدينة في الدولة العثمانية آزاق .

واجتمع هذا الاسطول في (سيريغو) ومنها قصد جزيرة كريت التي كان الأتراك يحاولون فتحها وأبحر ثلاثة آلاف فارس فرنسي ونزلوا في ميناء (سودا) من بلاد اليونان ، واشتدت الحرب في كريت ، وقتل في (كانيا) القائد حسن باشا ، وكبير الانكشارية ، وكان المسيحيون سائرين إلى الأمام وإذ جاءهم خبر بأن قوة عثمانية كبيرة قادمة إليهم من قنديا ، فلما سمعوا هذا الخبر وقع فيهم الرعب . ونكصوا إلى الوراء ، ثم أقبل باشا (كاترش يوغلي) على رأس أربعة آلاف عثماني وناجز المسيحيين القتال بقرب قنديا الجديدة ، وقتل منهم ألف وخمسمائة مقاتل وخارت عزائم الباقين ، وأرسل الباب العالي (١٨) سفينة حربية إلى تركيا ، فأذعن الأهالي للعثمانيين وخنعوا .

المشروع الثالث والأربعون

وهو المنسوب إلى (تورين) وتاريخه ١٦٦٣ ، ومن المعلوم أن تورين كان من أشهر قواد فرنسا ، فهل نسبة هذا المشروع إليه صحيحة أم لا ؟ وهل الخطاب الذي يقال أنه ألقاه في (مارسال) قد صدر منه أم لا ؟ هذا لا نقدر أن نجزم به لا سيما أننا في جميع الأوراق والوثائق التي خلفها المارشال تورين لم نجد أثراً لهذا الخطاب ، وأما الخطاب كما نسب إلى تورين فهو أنه اقترح على لويس الرابع عشر أن يعلن الحرب على تركيا ، وذكَّره بصليبية القديس لويس التاسع الذي ذهب إلى مصر وأفريقية ، وقال إن الجيش الفرنساوي مع الألمان والمجر الذين يمكنهم أن يزحفوا لقتال الترك قد يكون (٣٦) ألف راجل و (١٢) ألف فارس ؛

وأن جيشاً كهذا يمكنه أن ينازل المائة ألف عثماني ، وقال إنه يجب على انكلترا وهولندا أن تعاونا بأساطيلها لقمع قرصان الجزائر ، وفي نهاية هذا التقرير يقول تورين بزعمهم أن الضربة القاضية على تركيا لا تكون إلا من فرنسا .

المشروع الرابع والأربعون

وهو مشروع (لبينتز) وتاريخه ١٦٧٢ ، فالفيلسوف الألماني الشهير لبينتز[١] كان قد أعد برنامجاً أيضاً لمحو تركيا واستمر يُحررّه أربع سنوات ، وقدمه باللغة اللاتينية إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وقد اعتنى لويس الرابع عشر باقتراح لبينتز هذا ، وتلقى لبينتز من نظارة الخارجية الإفرنسية كتاباً يقول الناظر له فيه : إنني قدمت لجلالة الملك خلاصة كتبك والتقرير الذي معها الذي يتضمن رأياً عظيم الشأن يؤول إلى مجد جلالة الملك ومصلحته .

وكان لبينتز يرى قبل كل عمل فتح مصر ويقول : إنه إذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم إلى البوار[٢] وكان يشير بتحريك المجر

---

١ - لم تقتصر مشاريع أوربا لمحو الدولة العثمانية والتي كانت تمثل الخلافة الإسلامية ، لم تقتصر علي الوزراء ورؤساء الكنيسة والقواد العسكريين الذين قدموا هذه المشاريع ، [illegible] وهذا يدل على مدى تغلغل فكرة محاربة

والبولونيين لمناشبة تركيا الحرب ، فإذا اشتغل الترك بهؤلاء جاءت الدول المسيحية الأخرى وشنت الغارات على بلادهم ، فلم يكن أمامهم إلا السقوط . وخاطب لبينتز لويس الرابع عشر قائلاً : إنك أنت في حربك مع هولاندا لا تجد حليفاً إلا الحليف الذي تشتريه بالمال أما إذا حاربت تركيا فما أكثر أنصارك ، فاسبانيا وأمراء ايطاليا والبابا ، وربما الامبراطور وملك بولونيا يكونون معك وإذا تمكنت من فتح مصر فتكون بيدك السيادة البحرية وتجارة الشرق ، وقيادة المسيحيين العامة ، وإن لم يكن لك من فضيلة سوى تدمير السلطنة التركية لكان ذلك كافياً وبرغم جميع هذه الأماني العظام التي تمناها لبينتز لملك فرنسا لم يحسن الفرنسيس به الظن ، ويقول المؤرخ (سوريل) إن لبينتز لم يقصد بهذا إلا إبعاد فرنسا عن الدين ، وتزيين فتح مصر للويس الرابع عشر ، حتى يلهو بذلك عن معاركة ألمانيا وأما دجوفارا فيقول : إن هذه الأفكار كانت تحوم كثيراً في ذلك الوقت في خواطر الناس . وكان الفرنسيس بدأوا يحتجون على سياسية فرانسوا الأول ، والحكومات الفرنسية التي تابعته في موالاة الترك . فرأي لبيتنز كان الرأي العام حينئذ ، وقد تعرض لبينتز لقضية الحرب ولكنه أغفل قضية قسمة الأسلاب بعد سقوط تركيا . ولم يذكر منها إلا إعطاء مصر لفرنسا ، ولعله كان يضمر أن يكون الباقي راجعاً لأوستريا والمجر وبولونيا .

= باشا وأسرته الذين نشروا التخريب في مصر حتى ينتشر في بقية البلاد العربية وتدخلت بريطانيا في مناهج التعليم في مصر (عمل دنلوب) حتى تؤثر على بقية الدول المجاورة .

بقي أن نعلم ماذا أجاب لويس الرابع عشر الفيلسوف لبينتز على اقتراحه هذا! فنقول : إنه ثبت كونه أجابه بأن الحروب الصليبية قد مضى وقتها من زمن لويس التاسع .

ومن الغريب أن لويس الرابع عشر نفسه بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة عاد يفكر في مشروع اقتسام تركيا ، وأن تخرج مصر في نصيب فرنسا ، فكأنه رجع إلى فكرة لبينتز .

المشروع الخامس والأربعون

وهو مشروع (ميشل فابغر) وتاريخه ١٦٨٢ ، وكان هذا الرجل راهباً كبوشياً ، اسمه الأب يوستينيانوس ، أصله من (نوفي) بقرب (تور) من فرنسا ، أرسله الكبوشيون إلى حلب حيث أقام ثماني عشرة سنة ، وتعلم التركية والعربية والكردية والأرمنية ، وكان يتكلم بها كلها جيداً ، وألف كتاباً اسمه (حالة تركيا الحاضرة) وضعه باللغة الإيطالية ، ثم ترجمه إلى الإفرنسية ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية والإسبانية ، وقد قدّم هذا الكتاب إلى لويس الرابع عشر ، وصدّره بخطاب له ، يقول فيه : إن أهالي البلاد العثمانية بما هو واقع عليهم من الجور والطغيان ، وما هم مبتلون به من سوء الإدارة ينتظرون بذاهب الصبر استيلاءك على بلادهم [١] .

---

١ - نغمة تعودناها من هؤلاء الرهبان الأفاكين فالمسلمون وإن وقع عليهم جور لا يطلبون استيلاء الكفار على بلادهم .

قال دجوفارا : إن هذا الأب الكبوشي كان بدون شك مبالغاً في زعمه أن أهالي تركيا كانوا منتظرين مجيء الفرنسيس إلى بلادهم فيخلصوهم .

ولم يجد نداء (فيفر) هذا مجيباً ، فنشر كتاباً آخر قدمه إلى (لوفوا) الذي كان وقتئذ وزيراً ، وقال له فيه : « إنك تعلم جيداً الأسباب التي جعلت الدولة العثمانية تعيش برغم كل ما هي سابحة فيه من الفوضى واختلال الإدارة ، وإنه ليجب الإستفادة من هذه الأسباب ومحو هذه الدولة ، وإعادة الديانة المسيحية إلى البلدان التي لها علاقة بنا ، وإن حميتك الدينية يا سيدي ، ومكانتك من جلالة الملك تساعدان كثيراً على القيام بهذا الفتح المجيد ، لأن شعور جميع الأمم هو أنه لا يوجد دولة سوى فرنسا تقدر أن ترغم أنوف العثمانيين المتكبرين » ويعود هذا الأب إلى قضية حشد المؤمنين من كل فج لقتال غير المؤمنين ، ويشير بآراء غريبة في سبيل تدويخ الأمم الإسلامية ، وما قال : إنه ينبغي لإخضاع هذه الشعوب واستجلابها إلى عقيدتنا منعها بتاتاً من حمل الأسلحة[1] وأن ينصب حاكم إفرنسي على رأس كل ولاية .

ويرى دجوفارا هذه الآراء شاذة ، والحقيقة أنها سواء كانت شاذة أو

---

١ – قارن بما تفعله أوربا الآن من حظر الأسلحة عن مسلمي البوسنة ، وترك المجال مفتوحاً لنصارى الصرب ، وقد ظهر أخيراً حظر على الطلاب المسلمين في بريطانيا من التسجيل في دراسات علمية معينة تتعلق بصناعة الأسلحة أو ما يقابلها .

لم نكن ، فإن الدول الأوربية العصرية لم تعمل شيئاً إلا وفق ما كان أشار به الأب يوستيانوس هذا ، فقد كانوا يتفقون على منع بيع الأسلحة من المسلمين ، لا المسلمين الذين في المستعمرات الأوربية فقط ، بل المسلمين الذين لا يزالون حافظين لاستقلالهم ، وقد صح عندهم[١] هذا العزم أكثر من كل وقت مؤخراً بعد الحرب العامة التي سقطت بها السلطنة العثمانية ، فخُيل لهم أن الغرة لائحة لنيل كل أرب من الإسلام ومنذ سبع أو ثماني سنوات[٢] انعقد في جنيف مؤتمر دولي لنزع السلاح فكان أكثر نزوع الدول الإستعمارية إنما هو لمنع بيع السلاح من تركيا وفارس وأفغانستان ومصر وبلاد العرب ، ولقد قرر المؤتمر المذكور مناطق ممنوعاً إدخال السلاح إليها ، من جملتها مصر وجزيرة العرب ، برغم استقلال الحجاز ونجد واليمن ، وحاول منع بيع السلاح من فارس إلا أنه فشل في ذلك لكون أكثرية المؤتمر لم تقدر أن توافق على قرار يمنع تسلح دولة مستقلة بجميع معاني الإستقلال مثل دولة فارس ، فعادت انكلترا وضربت العجم ضربة ثانية وأبت إلا إنفاذها وهي منع تسرب السلاح إلى العجم من طريق البحر ، وأن يكون لانكلترا الحق في تفتيش السفن الواردة إلى مراسي ايران ، وقد وافق انكلترا على هذا

---

١ - الأوربيين .

٢ - أنهى الأمير شكيب أرسلان تعليقاته على (حاضر العالم الإسلامي) عام ١٩٢٥ وقد بدأها عام ١٩٢٣ ، وكتب المقدمة للطبعة الأولى عام ١٩٢٥م وهو مقيم في مرسين في تركيا .

القرار الأعوج فرنسا وايطاليا واليونان ، وبعض الدول ، وأمسكت ألمانيا وأكثر الدول عن إبداء رأيهن ، فتقرر بسبب إمساك هذه الدول عن إعطاء الرأي تأييد ما طلبته انكلترا من هذه الجهة . ومقصودنا أن قضية نزع السلاح من أيدي المسلمين ومنع دخول الأسلحة إلى بلدانهم ، هذه قضية طالما فكر بها الأوربيون قديماً وحديثاً ، ولم تفتهم ولا ساعة ولنعد إلى كلام (يوستيانوس) في معاملة المسيحيين للمسلمين ، فنقول : إنه في الفصل الثلاثين من كتابه يشير بحمل المسلمين على النصرانية ، وبأن يتوسل ملوك النصارى إلى ذلك بوضع جميع الضرائب على المسلمين دون غيرهم[1] وهكذا يضطرون بزعمه من شدة عنائهم ويأسهم أن يتنصروا ، قال دجوفارا : إلا أن الأب يوستنيانوس يحذر من تحويل المسلمين عن الإسلام إلى الكنيسة الأرثوذكسيه بل يشترط أن يكون دخولهم إلى الكنيسة الكاثوليكية .

قلنا[2] : ومسألة الضرائب وحصر أدائها في المسلمين إن لم تكن نفذت بحذافيرها في هذا العصر بحق المسلمين المغلوبين على أمرهم فقد نفذ ما يشبهها ففي جزائر الغرب مثلاً لا يؤدي الفرنسيس الضرائب التي يؤديها المسلمون بل قطعة الأرض نفسها يؤدي عنها الفرنسي شيئاً زهيداً فإذا صارت إلى المسلم أدى أضعافه . ثم قال الأب : وأما مهاجمة الدول العثمانية فيجب أن تكون جهته مضيق الدردنيل ، وهذه أيضاً

---

١ - تأمل في عدالة هذا القسيس ! (ش) .
٢ - شكيب أرسلان .

فكرة قد أجرتها أوربا بعد مئتين وثلاثين سنة ، إذن آراء هذه القسيس لم تكن سخيفة .

المشروع السادس والأربعون

وهو مشروع لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، بل أعظم ملوكها وتاريخه ١٦٨٥ - ١٦٨٧ .

كان لويس الرابع عشر قد نسي عضد تركيا لفرنسا في زمان فرانسوا الأول ، وغلَبَ عليه الشعور الديني الصليبي ، فكان له يد في حروب المجر ، وكانت له نجدات لجزيرة كريت عندما فتحها الترك وطارد بحرية الجزائر ، ورمى تونس والجزائر بالقنابر[١] ولما أراد البابا اسكندر السابع تأليف عصبة مقدسة[٢] كان أول من أجاب نداءه لويس الرابع عشر .

وكانت حماسة الأوربيين للحروب الصليبية قد بدأت تتراجع لعهد الملك المذكور ، ونظم له الشعراء القصائد ، ودعوه إلى محو الإسلام ، وألفَ المؤرخون والسياسيون كتباً في استنفار لويس الرابع عشر وملوك النصارى لمحاربة المسلمين ، ومن هؤلاء (دوفينيو) نَشَرَ سنة ١٦٨٧ كتاباً أوضح فيه ضعف الدولة العثمانية ، وسهولة هدم بنيانها ، وبين كيفية عبور الدردنيل ، وتفاءل بإقامة صلاة الشكر على ذلك في كنيسة القديس بطرس في روما أو اياصوفيا في الآستانة .

---

١ - المدفعية .

٢ - أي في وجه الإسلام (ش) .

أما برنامج لويس الرابع عشر فقد كان استيلاء فرنسا على المورة وتساليا وسلانيك وصربيا وبلغاريا والروملي[١] وجزر الأرخبيل وأن يكون كل هذا تحت تاج أحد أبناء لويس الرابع عشر ويكون لبولونيا الفلاخ والبغدان ، وللبندقية كرواسيا وألبانيا ودالماسيا وبوسنة ، وكان أرسل لويس الرابع عشر سفيراً إلى الآستانة اسمه (جيراردين) ومعه (دوريتار) ضابط بحري نظم خريطة فيها وصف القلاع التركية التي على سواحل البحر المتوسط ، وبيان العمل لكيفية أخذها[٢] ، وقدم السفير المذكور للملك تقريراً وافياً عن دخل السلطنة وخرجها ، وعن أصناف جيوشها وكيفية إعاشتهم .

وفي الخامس من (مارس) سنة ١٦٨٤ كان قد انعقد حلف بين بولونيا والنمسا والبندقية وروسيا يداً واحدة على تركيا ، ودعوا شاه العجم للدخول معهم في هذا الحلف[٣] وكانت فرنسا تريد إعطاء الفلاخ والبغدان إلى بولونيا بحجة أنه لولا الجيش البولوني لكان الترك فتحوا فيينا ، وأن بولونيا مع ذلك لم يكافئها الامبراطور بشيء .

هذا وإن مشروع لويس الرابع عشر لم ينفذ منه شيء ، وكان لهذا

---

١ - يطلق على المناطق الأوربية التي افتتحها العثمانيون في بداية أمرهم .

٢ - لطالما تجسس الأوربيون باسم السياحة أو غيرها ورسموا الخرائط ، وعرفوا طبيعة الشعوب ونقلوا هذا إلى الدوائر المختصة في بلادهم ، والعجيب كيف يترك مثل هذا الضابط ليرسم خريطة القلاع .

٣ - يبدو أن أمر الأحلاف الأوربية لا تكون على أفضل حالاتها إلا إذا أدخلوا بعض دول المنطقة فيها .

الملك من حروبه مع اسبانيا وهولاندا وانكلترا والامبراطورية الجرمانية شاغل عنه .

المشروع السابع والأربعون

وهو مشروع الأب (كوبين) وتاريخه سنة ١٦٨٦ ، كان هذا الرجل في مبدأ أمره ضابطاً في الخيالة بفرنسا ، ثم تحول قسيساً وصار قنصلاً لفرنسا في دمياط[١] ، وبعد إيابه إلى وطنه ألف كتاباً سماه (ترس أوربا) فيه الدعوة إلى تقسيم السلطنة العثمانية ، ويعطي القسم الأكبر من هذا التقسيم لفرنسا حيث يعطيها : أدرنة وبرسا إلى داخل آسيا الصغرى حتى طرابزون ومن أفريقيا مصر وعنابة وتونس ، ويعطي اسبانيا الجزائر ووهران ، ويعطي البرتغال طرابلس الغرب وساحل مكدونيا وحلب .... الخ وهكذا يستمر في التقسيم فلا يترك جزءاً إلا وأعطاه لدولة أوربية[٢] .

قال دجوفارا : إن تقسيمات هذا القسيس العسكري مختلطة متداخلة جداً كما ترى ، وكأنه تعمدّ أن لا يترك مملكة مسيحية بدون شقص من هذه الغنيمة ، إلا إنه نسي دوق موسكو ، فالأب كوبين يقول : إن هذا المشروع يجوز اطلاع أمير موسكو عليه ليعلم ماذا يقترح من الحصص .

---

١ - مدينة في مصر ، تقع عند مصب فرع النيل في البحر المتوسط .

٢ - وكأن العالم الإسلامي أصبح نهباً أو قد ورثه من أبيه .

المشروع الثامن والأربعون

وهو المنسوب إلى بطرس الأكبر الروسي وتاريخه سنة ١٧١٠ .

كثر البحث هل هذا المشروع صحيح النسبة إلى بطرس الأكبر قيصر الروس أم لا ؟ فالمؤرخ الروسي (فاليزيفسكي) يقول إنها أكذوبة ، وكل من (جوبير) و (مورنو) يقول أن بطرس الأكبر لم يحرره بخطه لكن أفكاره كانت هي هذه ، ولقد نشر هذا المشروع المسيو (ليزور) سنة ١٨١٢ و لكن المُؤرخْين الشهيرين (لافيس) و (رامبو) يذهبان إلى أنّ (ليزور) لفقّ هذا المشروع تزلفاً لنابليون الأول ، وزعم (بركولز) أن أبا عذرة هذا البرنامج هو نابليون نفسه ، وقال (سوكولنيكي) في كتابه (وصية بطرس الأكبر) أن محرر هذا المشروع هو الجنرال ميشل سوكولنيكي المتوفي سنة ١٨١٦ . وكيف كانت الحال فالجميع متفقون على أن خطة الأمة الروسية هي هذه التي تضمنتها هذه الوصية المنسوبة إلى بطرس الأكبر ، والمؤرخ الروسي (فاليزيفكي) يقول أن المواد الإحدى عشرة الأولى من هذه الوصية المنشورة سنة ١٨١١ قد كانت هي خطة روسيا المتبعة في سياستها في الشرق منذ سنة ١٧٢٥ .

ولقد كان بطرس هو الذي رقى روسيا إلى صف الدول العظام ومن قبله وإلى أواسط أيام أيام لويس الرابع عشر في فرنسا لم تكن روسيا شيئاً مذكوراً .

وقد كان أول من أظهر الطمع من ملوك الروس في القسطنطينية القيصر إيفان الثالث ، الذي حرر نفسه من حكم التتار سنة ١٤٨٢ ، وتزوج بابنة شقيق الامبراطور ميشل باليولوغ فصار يدّعي ملك بيزنطية بهذه المصاهرة ، ولكن الذي بدأ بمقاومة الأتراك فعلاً ، ونصب نفسه لحماية المسيحيين في الشرق هو بطرس الأكبر ، وكان من أول أعماله أنه أرسل إلى الفلاخ والبغدان دعاة يحركونهم إلى الثورة ، وكان هناك أسقف من القدس يشيع أنه وجد على قبر قسطنطين كتابة تشير إلى أن الروس هم الذين سيطردون الترك من أوربا[1] وأما وصية بطرس فهي (١٤) بنداً أهمها البند الخامس وهو أن يصير الإتفاق مع النمسا على طرد الترك من أوربا ، ويجهز لهذا الغرض جيش دائم في البر ، وتبنى دور صنعة لبناء السفن في سواحل البحر الأسود ويستمر التقدم نحو القسطنطينية ، والبند السابع الذي يوصي بالإتفاق مع انكلترا ، والعمل للسيادة في بحر البلطيق والبحر الأسود ، إذ بدون السيادة على هذين لا يتم لروسيا مرادها .

والبند الثامن الذي يذكر أن أعظم تجارة في الدنيا هي تجارة الهند ، مَنْ أحرزها ساد على أوربا فيجب انتهاز كل فرصته لإصلاء فارس الحروب التي تنهك قواها ، ومن ثمة نمكن الوصول إلى الخليج الفارسي والاستيلاء على تجارة الشرق .

---

١ - من أكاذيب الرهابين ، والخرافات عند هؤلاء كثيرة .

والبند الحادي عشر الذي يوصي الروس بجمع كلمة الأرثوذكسيين تحت حمايتهم ، سواء الذين في تركيا أو المجر أو بولونيا ، وبواسطتهم تثار الفتن والحروب على هذه الممالك الثلاث إلى أن تتلاشى .

والبند الثاني عشر الذي يوصي بإيقاد نيران المنافسات بين فرنسا والنمسا ، وأن تتعهد الروس لكل من هاتين الدولتين سراً وبدهاء عظيم أن تمالئها على قسمة العالم فتقع بينهما الحروب ، ومن ثمة تتحول حرباً عامة .

والبند الثالث عشر الذي يقول فيه : إنه بعد أن تنشب الحرب العامة في كل مكان وتنهك قوى الجميع ، يصير لروسيا الخيار في ترجيح الجهة التي تريد ترجيحها على عدوتها ، وحينئذ تجنح روسيا إلى جانب النمسا ، ثم تزحف الجنود الروسية المنظمة نحو الراين ، ووراءها تلك العصائب الآسيوية[١] التي تنتشر في ألمانيا ثم يخرج اسطولان : أحدهما من البحر الأسود ، والآخر من بحر أركانجل[٢] وعليهما هذه العصائب الآسيوية ، فيقذفان بها على ايطاليا وأسبانيا وفرنسا ، وتأخذ هذه العصائب بالعَيْث[٣] والتدمير ، وتأخذ قسماً من أهل فرنسا أسرى فيقذف بهم إلى سيبريا لأجل عمارة أراضيها الواسعة[٤] .

---

١ - يعني القسم الآسيوي من روسيا ، فلا مانع أن يستخدم الجنس الأسيوي لحرب أوربا ولكن الغنائم تكون له .

٢ - ميناء روسي على البحر الأبيض الذي يتفرع من المحيط المتجمد الشمالي .

٣ - العَيْث : الإسراع في الفساد .

٤ - لا شك أنه مشروع مضحك .

هذا أهم ما في هذه الوصية ، وفي نظارة الخارجية الإفرنسية نسخة من مشروع السيادة الروسية العالمية المنسوب إلى بطرس الأكبر ، يوصي به خلفاءه ، والأصل كان في خزانة أوراق قصر (بترهوف) بقرب بطرسبرج .

المشروع التاسع والأربعون

المنسوب إلى الأب (سان بيير) وتاريخه ١٧١٣ هذا الرجل كان من أعضاء الأكاديمية الإفرنسية ألفّ كتاباً أعاد فيه مشروع (سولي) وهنري الرابع ، وقال إن تنفيذه غير مستحيل ، إلا أن هذا الرجل امتاز عن سائر أصحاب المشروعات الصليبية بأنه لم يلتزم قضية محو السلطنة العثمانية من الوجود وإنما قال إنه متى علم الترك بوجود عصبة دفاعية عامة بإزائهم لم يجرأو على مناجزة الامبراطورية ولا بولونيا ولا روسيا ولا البندقية حرباً ما لأنهم يعلمون أن هذه العصبة حينئذ تطردهم من كل أوربا .

ثم يفكر هذا الأب في اختلاف الأديان التي ستشتمل عليها هذه العصبة وما يخشى من تصادمها بعضها مع بعض ، لكنه يعود فيحلّ هذه المعضلة بقوله : إنه بواسطة الإختلاط والإحتكاك تكون الديانة الحقيقية هي السائدة على الجميع في آخر الأمر . ويقول في موضوع الصلح بين المسلمين والنصارى كلاماً حرياً بالنقل . فيذكر أن بعض الناس يعترضون قائلين : إن الدين الإسلامي يمنع المسلمين من صلح دائم مع النصارى ، ولا يأذن لهم إلا بهدنة مؤقتة فالأب (سان بيير)

يجيب على هذا الإعتراض قائلاً إن هذا يمنعه الدين الإسلامي فيما إذا كان المسلمون هم الحزب الأقوى أو المساوي بالأقل ، فأما إذا كان أعداؤهم أكثر عدداً ، وأقوى عدداً فلا يمكن أن يكون الصلح ممتنعاً عندهم ، لأن استمرار الحرب يجعل الإسلام في خطر شديد ، ثم لنفرض أن الصلح إلى أمد غير محدود ممنوع على المسلمين أفليس لهم أن يعقدوا مهادنات إلى (٢٠) سنة وأن يجددوها ؟ والجواب : لهم ذلك ، فإذا هم يمكنهم أن يعقدوا مهادنات إلى (١٠٠) سنة بدلاً من (٢٠) سنة وأن يجددوها ، وهل الصلح الدائم غير هذا ؟ .

قلت : لا بأس أن نورد هنا أحكام المهادنة والصلح في الإسلام ، نظراً لورود هذا المبحث في هذا المحل ، فنقول : جاء في (بداية المجتهد ونهاية المتقصد)[١] للإمام الفقيه الأصولي القاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي الأندلسي في هذا الباب ما يلي : «فأما هل تجوز المهادنة ؟ فإن قوماً أجازوها ابتداء من غير سبب ، إذا رأى ذلك الإمام مصلحة للمسلمين ، وقوم لم يجيزوها إلا لمكان الضرورة الداعية لأهل الإسلام ، من فتنة أو غير ذلك ، إما بشيء يأخذونه منهم[٢] لا على حكم الجزية - إذا كانت الجزية إنما شرطها أن تؤخذ منهم وهم بحيث تنفذ عليهم أحكام المسلمين - وإما بلا شيء

---

١ - جزء ١/ ٣٨٧ ط دار المعرفة ١٩٧٨

٢ - أي من القوم المُهادَنين .

يأخذونه منهم وكان الأوزاعي يجيز أن يصالح الإمام الكفار على شيء يدفعه المسلمون إلى الكفار ، إذا دعت إلى ذلك ضرورة فتنة أو غير ذلك من الضرورات ، وقال الشافعي : لا يعطي المسلمون الكفار شيئاً إلا أن يخافوا أن يصطلموا[١] لكثرة العدو وقلتهم ، أو لمحنة نزلت بهم وممن قال بإجازة الصلح إذا رأى الإمام ذلك مصلحة : مالك والشافعي وأبو حنيفة ، إلا أن الشافعي لا يجوز عنده الصلح لأكثر من المدة التي صالح عليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الكفار عام الحديبية ، وسبب اختلافهم في جواز الصلح من غير ضرورة معارضته ظاهر قوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر﴾ وقوله تعالى ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على اللّه﴾ فمن رأى أن آية الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ناسخة لآية الصلح قال لا يجوز الصلح إلا من ضرورة ، ومن رأى أن آية الصلح مخصصة لتلك قال : الصلح جائز إذا رأى الإمام وعضد تأويله بفعله ذلك صلّى اللّه عليه وسلم ، وذلك أن صلحه صلّى اللّه عليه وسلم عام الحديبية لم يكن لموضع الضرورة . وأما الشافعي فلما كان الأصل عنده الأمر بالقتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وكان هذا مخصصاً عنده بفعله عليه السلام عام الحديبية لم ير أن يزاد على المدة التي صالح عليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وقد اختلف في هذه المدة ، فقيل كانت أربع سنين

---

١ - صلم الشيء : قطعه ، والإصطلام : الإستئصال والإبادة .

وقيل ثلاثاً ، وقيل عشر سنين ، وبذلك قال الشافعي ، وأما من أجاز أن يسامح المسلمون المشركين بأن يعطي لهم المسلمون شيئاً إذا دعت لذلك ضرورة فتنة أو غيرها ، فمصير إلى ما روى أنه كان عليه السلام قد هَمَّ أن يعطي بعض ثمار المدينة لبعض الكفار الذين كانوا في جملة الأحزاب لتخييبهم[1] فلم يوافقه على القدر الذي كان سمح له به من ثمر المدينة حتى أفاء اللّه بنصره[2] .

وأما من لم يجز ذلك إلا أن يخاف المسلمون أن يصطلموا فقياساً على الإجماع على جواز فداء أسارى المسلمين ، لأن المسلمين إذا صاروا في هذا الحد فهم بمنزلة الأسارى » أ . هـ .

ثم ذكر الأب سانت بيير اعتراضاً لبعضهم معناه أنه لا يجوز أن يدعى الترك إلى الصلح قبل أن يُعطى البولونيون بلاد التتار والقوزاق التي على سواحل البحر الأحمر[3] وقبل أن يعطى البنادقة بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريت ، وقبل أن يرد إلى فرنسا مالطة جزيرة رودس فيجيب الأب سانت بيير على هذا الإعتراض بقوله : إننا لا نرى فتح

---

١ - هكذا وردت والصحيح لتخبيبهم ، جاء في لسان العرب ٢/ ١٠٨٦ خبب أي خدع والمقصود تفريق صفوف الكفار .

٢ - ربما يقصد أن أصحاب الثمار وهم الأنصار قالوا للرسول صلّى اللّه عليه وسلم : إذا كان هذا اجتهاداً منك لحرصك على أرواح المسلمين فإنا لا نعطيهم من ثمارنا ولا نعطيهم إلا هذا السيف ، فوافق الرسول صلّى اللّه عليه وسلم على كلام الأنصار وقال للأعراب : قوموا فليس لكم شيء .

٣ - يقصد على سواحل البحر الأسود وبحر قزوين ، ولعله خطأ مطبعي .

هذه الفتوحات ضرورياً لأجل تأمين حياة العصبة المسيحية التي نحن بصددها ، ثم إنه لا يظن أن أكثر ملوك المسيحيين يفضلون فتح هذه الفتوحات لبولونيا والنمسا والبندقية وفرسان مالطة على إدخال الترك معهم في المجتمع الأوربي .

قال دجوفارا : إنه غريب في الحقيقة أن نجد قسيساً مثل الأب سانت بيير معارضاً لاستئصال غير المؤمنين أي المسلمين وعاملاً بالعكس لأجل إدخالهم في مجتمع الدول المسيحية[١] ، قلت[٢] : قد مضى علينا إلى هنا تسعة وأربعون مشروعاً من مشروعات تقسيم تركيا ولم نجد فيها كلها مشروعاً واحداً سوى مشروع هذا الأب يتضمن فكرة استبقاء المسلمين ، بل جميعها كانت تدابير مقصوداً بها محو تركيا والإسلام بأسره ، وإن كان قد ورد في بعضها إشراك دولة العجم في حصة من تقسيمات تركيا ، فيكون هذا من باب السياسة الحربية حتى يدخل العجم في العصابة ضد الترك ويزيدوهم ضعفاً ، ثم بعد أن تسقط تركيا ، فمن البديهي أنه لا بد من سقوط العجم[٣] .

---

١ - تتهالك تركيا العلمانية في هذه الأيام على الدخول في السوق الأوربية المشتركة ولكن أوربا ترفض ذلك والسبب معروف وهو أن الشعب التركي شعب مسلم .

٢ - الأمير شكيب .

٣ - قد يحتفظون بالعجم (ايران) لمناوشة السنة دائماً ، ولم يسأل الأمير نفسه لمَ يثق الأوربيون في العجم لضرب الدولة العثمانية .

المشروع الخمسون

وهو مشروع نمساوي وتاريخه سنة ١٧١٨ وكانت تركيا في حرب مع النمسا من أجل بلاد المجر والفلاخ ، وكانت أوستريا أو النمسا احتلت قسماً من الفلاخ ، وفي ١٩ اكتوبر سنة ١٧١٨ كتب الصدر الأعظم إلى البرنس أوجين النمساوي يدعوه إلى الهدنة ، فرضيت النمسا بالصلح على الشروط الآتيه وهي : إن الباب العالي يرفع سيطرته عن بلاد المجر الثائرة ، ويمتنع عن بيع الأسرى ، ويراقب الولايات العثمانية في شمالي أفريقية ويمنعها من الإعتداء ، ويعطي الرهبان الفرنسيسكانيين الأماكن التي يطلبونها في القدس[1] ، ويتخلى للنمسا عن قسم من الفلاخ ، وفي (٨) فبراير سنة ١٧١٧ عقد الجنرال النمساوي (ستافيل) مع (جان مافر رداتو) أمير الفلاخ معاهدة يتعهد بها الجيش النمساوي بأن لا يقطع نهر (ألوتا) ثم دخلت انكلترا وهولاندا في الوساطة بالصلح بين النمسا وتركيا ، فإذا بالنمسا تقترح ضم الفلاخ والبغدان إلى الامبراطورية النمساوية ، فالترك رفضوا ذلك وجاء الخبر بأن (١٨٠٠٠) اسبانيولي نزلوا في ساحل ايطاليا الشمالية ، فقلقت من أجل ذلك النمسا وأسرعت بعقد الصلح .

---

١ - يجمع المؤرخون للدولة العثمانية على أن من أسباب ضعفها كثرة الإمتيازات التي منحت للنصارى بضغوط من الدول الأوربية ، وأصبحت حقوقاً مكتسبة وتحول هؤلاء إلى أعداء للدولة ، وشايعهم المغفلون باسم القومية العربية .

المشروع الواحد والخمسون

وهو مشروع (دسلوفاي) وتاريخه سنة ١٧٣٢ . وكان دسلوفاي هذا مجريّاً في الأصل من حاشية البرنس (راكوتزي) وكان يسمو إلى إمارة في الفلاخ والبغدان وكان يقول إن ثمة أرضاً بين المجر وترانسلفانيا تابعة للفلاخ والبغدان عظيمة الخصب ، تستطيع أن تمير عدداً كبيراً من السكان ، وأنه إذا سمح له بها الباب العالي أمكنه أن يعمرها ويكون للباب العالي بذلك فائدة وهي وضع فاصل بين أملاكه والامبراطورية الجرمانية ، وتكون هذه الإمارة الجديدة تابعة في سياستها للباب العالي وتكون كاثوليكية المذهب . إلا أن الباب العالي امتنع عن قبول هذا الإقتراح ، لأنه كان اتفق مع النمسا بأن لا يروّج غرضاً كهذا يستفيد منه البرنس (راكوتزي) وقومه المجر . وقيل أن ديسلوفاي إنما كان يعمل ظاهراً لنفسه ، وباطناً لأميرة البرنس المذكور ، وقد أجمع الناس على أن هذا المشروع كان خيالياً ، وهو على كل حال ليس فيه شيء مهم من تقسيم تركيا ، بل كان موجهاً في الحقيقة لصد النمسا والإستعانة بتركيا عليها .

المشروع الثاني والخمسون

المنسوب إلى الكاردنيال (البروني) وتاريخه سنة ١٧٣٦ وكان البروني هذا طليانياً ولد في (فيرانزولا) ١٦٦٤ ومات سنة ١٧٥٢ وكان من أعاجيب الدهر .

قال دجوفارا : إن فكتور هوغو يذكر لنا رجلاً اسمه (روي بلاس) كان في أوليته خادم منزل ، فصار في الآخر الوزير الأول في أسبانيا ، وقد يظن أن هذه الحكاية خيالية من نتائج تصورات ذلك الشاعر العظيم ولكن قصة الكاردينال البروني كانت حقيقة واقعية ، وقد تجاوزت قصة (روي بلاس) فإن هذا الرجل كان من الطبقة الدنيا وكان أبوه حارس بستان ، وقد تربى في دير في مدينة (بلازانس) وتعلّم مجاناً ، ثم صار معلماً لابن أخي المطران (برني) ثم صار ناموساً للمطران (رونكوفييه ري) ثم دخل في بلاط دوق (بارم) ومازال ينال حُظوة حتى أرسلوه معتمداً سياسياً في مجريط وهناك أبدى مزيد المهارة في السياسة ، وذلك أن ملك اسبانيا فيليب الخامس كان له حظية قد استبدت بالأمور فمازال البروني به حتى أقنعه بالزواج بالأميرة (اليصابت فرينزي) وارثة عرش بارم ، وبعد ذلك تمكن من نفي معشوقة الملك ، فلا جرم أن الذي يتصرف بقلب ملك اسبانيا إلى ذلك الحد ، يمكنه أن يحمله على السياسة التي يريدها ، فلم يلبث أن تولى البروني رئاسة الوزراء في اسبانيا ، ثم صار رئيس أساقفة أشبيلية .

وقد ازدادت في أيامه قوة أسبانيا ، ففتحت جزيرتي سردانيه وصقلية ولكن طرأ في زمانه أن الاسطول الإنكليزي دمرّ الأسطول الأسباني في (سيراكوزا) ثم انعقدت معاهدة رباعية بين انكلترا وفرنسا واوستريا وهولندا ، فخطر في بال البروني أن يقابل هذه العصبة بعصبة أخرى مؤلفة من اسبانيا والروسيا وتركيا والسويد . وفي تلك المدة أعلنت

فرنسا الحرب على اسبانيا أي سنة ١٧١٩ ، فخاف فيليب الخامس من هذه الخطوب المتوالية ، وطرد البروني من اسبانيا ، فخرج ذليلاً وهام على وجهه في الأرض لا يملك شيئاً ، ثم قُبض عليه في جنوة بأمر البابا (اينوشانسيوس) الثالث عشر وحكم عليه بالحبس مدة أربع سنوات في دير ، ولكنه بدهائه تمكن من نيل العفو وصار فيما بعد معتمداً للبابا ، وقد ألف البروني هذا كتاباً يحتوي أفكاره السياسية ، قال فيه ما خلاصته : إنه يجب على دولتي فرنسا واسبانيا أن تعضدا دولة النمسا على الدولة العثمانية عدوة المسيحية ، وهكذا تتمكن النمسا بالإتفاق مع روسيا من طرد الأتراك من أوربا ، واسترجاع الأراضي المقدسة ، ويقول : إنه لو اتفقت دول أوربا لم تطرد الترك من أوربا فقط ، بل أمكنها طردهم من آسيا وأفريقية ، وأشار بعقد مؤتمر في (رغنسبورغ) تنعقد فيه معاهدة بين الدول المسيحية ويتأسس صندوق مركزي للمال في البندقية . وذهب (البروني) إلى كون فشل الحروب الصليبية إنما كان السبب فيه الخُلف الذي وقع بين المسيحيين من أجل تقسيم الفتوحات .

قال : ولما كان الحصن الحصين الأكبر الذي وقى أوربا والنصرانية من عادية الإسلام هو الامبراطورية الرومانية[١] فيجب أن تضاف إليها برسنة وصربيا ، واسكلافونيا[٢] ومكدونيه والفلاخ ، ثم قال إنه لما كان قد ثبت كون القيصرة (حنة) صاحبة روسيا ليس لها هَمٌّ أعظم من نشر

---

١ - أي الجرمانية التي خلفت الإمبراطورية الرومانيه (ش) .
٢ - كذا ، والظاهر أنها ما يسمى الآن : سلوفينيا .

الديانة ، فإننا نرى من باب المكافأة لها إعطاءها بلاد التتار وآزوف وبمقابلة ذلك ترد هي بلاد فنلندا ومملكة السويد . وتجب مكافأة اسبانيا بإعطائها الجزائر ومكافأة البرتغال بإعطائها طرابلس الغرب ، ويجب تسليم أزمير وجزيرة كريت إلى انكلترا ، وتسليم حلب وجزيرة رودس إلى هولندا[١] . وأما بولونيا فمن حيث كانت مدة طويلة حصناً للنصرانية ، وقد أصيبت بمصائب كثيرة فيجب أن تكافأ بتسليمها بلاد البغدان وبلاد التتر ، وما من أحد ينازع في إعطاء دالماسيا إلى البندقية ولا في إعادة المورة لها .

فهذه خلاصة تقسيم الفتوحات بين الفاتحين ، وأنت ترى أن فرنسا وسويسرا ، وفرسان مالطة ليس لهم ذكر في هذه التقاسيم ، وأغرب من هذا عدم إعطاء شيء للبابا ، وكل هذا فيه نظر .

قال دجوفارا : إن أربع دول بلقانية لم تنته من الحرب مع تركيا حتى اشتبكت في حرب بعضها مع بعض لأجل قسمة الفتوحات وهذا يرغم امبراطور روسيا الذي كان هو الحكم فيما بينها[٢] فكيف تريد أن تتفق دول أوربا بأجمعها على تقسيم الدولة العثمانية ؟ يريد أن يقول : إن اتفاقات الدول على تقسيم الفتوحات هي أسهل في النظر منها في العمل .

---

١ - انظر كيف يوزع هذا العلج بلاد الإسلام ؟! .

٢ - مازالت دول البلقان وما يجري بينها من بؤر الصراع العالمي ومازالت بعض هذه الدول تريد أن تتعاظم على حساب جيرانها كما يفعل الصرب .

المشروع الثالث والخمسون

وهو مشروع نمساوي ، وتاريخه سنة ١٧٣٧ ، كان الروس قد اتحدوا مع النمساويين ، وهاجموا الترك سنة ١٧٣٧ إلى سنة ١٧٣٨ ، وصد الباب العالي هاتين الدولتين معاً ، وأبدى قوة عظيمة ، إلا أنه طلب التوسط لدى الدول الأوربية وكانت فرنسا تعضده بواسطة سفيرها (فيلنوف) الذي كان يُشدّد (على) الباب العالي ولا سيما في منع الروس من الإتصال بالبحر الأسود خوفاً من وصولهم إلى البحر المتوسط[1] فانعقد مؤتمر الصلح في (نميروف)من بولونيا ، وكان طلب الروس أن تكون لهم جميع سواحل البحر الأسود ، الممتدة من مصب الدانوب إلى باطوم ، مع حرية الملاحة في هذا البحر ، وأن تنضم الفلاخ والبغدان مملكة واحدة مستقلة ، إلا أن الديانة الأرثوذكسية فيها تكون تحت حماية الروسيا ، وأما أوستريا فطلبت جميع بلاد الصرب ونيش وودين ، وبوسنة ونوفي بازار ، وكانت تسمو أيضاً إلى أخذ الفلاخ ، فالباب العالي رفض هذه المطالب كلها واستؤنف القتال ، فدخل الأوستريون بلاد الفلاخ ووصلوا إلى بخارست ، إلا أن الترك

---

١ - كانت أحلام روسيا القيصرية ، وروسيا الشيوعية ، الوصول للمياه الدافئة في المحيط الهندي والبحر المتوسط ، وبعد سقوط الإتحاد السوفييتي ، قام حزب روسي متعصب بالدعوة لاحتلال بلاد المسلمين للوصول إلى المياه الدافئة ، يقول جيرينوفسكي زعيم هذا الحزب : « بعد سقوط الدول الإسلامية ، سيغسل جنودنا أحذيتهم في المياه الدافئة للمحيط الهندي » .

كسروهم في (مهادية) وأخذوا (أرزوفا) وفي ١٠ نوفمبر سنة ١٧٣٨ تصالحت فرنسا مع السويد وعرضت هذه المحالفة على تركيا .

أما الروس فقطعوا نهر (البروت) وفي ١١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ زحف لمارشال مونيك إلى (جاسي) وكانت فرنسا توسطت في الصلاح مع اوستريا ، وانعقدت معاهدة بلغراد في ١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ وبقيت بلاد الصرب وبوسنة والفلاخ لتركيا ، ولما رأت الروسيا أن اوستريا تركت الحرب وصالحت تركيا ، ورأت السويد تهاجم من الوراء أعادت إلى الباب العالي البلاد التي كانت احتلتها من ممالكه ، ورضيت بطمس قلعة آزوف واقتنعت بما كانت عليه قبل تلك الحرب من عدم الإتصال بالبحر الأسود .

وكان صلح بلغراد هذا آخر صلح مجيد عقده الباب العالي مع أوربا ، وكوفئت فرنسا على عضدها لتركيا في هذه المصالحة بتجديد الإمتيازات الإفرنسية في تركيا وبزيادتها .

المشروع الرابع والخمسون

وهو المنسوب إلى المركيز (دارغنسون) وتاريخه ١٧٣٨ ، وكان هذا الرجل ناظراً لخارجية فرنسا لعهد لويس الخامس عشر ، ويقال أنه كان على جانب عظيم من استقامة المباديء ، حتى قال عنه فولتير : إنه أحرى بأن يكون وزيراً في جمهورية أفلاطون من أن يكون وزيراً عند ملك فرنسا ، وفي أواخر القرن الثامن عشر عادت في أوربا حماسة

النصرانية ، وتجددت العزائم لقتال الترك ، وكان فولتير يدعو إلى نصرة الأروام[1] و (شنيه) ينظم الأشعار الحماسية لمقاتلة الترك ، ونشر الكونت (دومارسيفلي) كتاباً اسمه « حالة تركيا العسكرية وتقدمها وتنهقرها » وكان هذا الرجل طليانياً اشتهر بالعمل وخدم دولة اوستريا وأسره الترك سنة ١٦٨٣ ، فقال في كتابه : « إنه إذا اتفق الامبراطور والروس وبولونيا والبنادقة أمكنهم محو السلطنة العثمانية من الوجود » أما الوزير دارغنسون فمع أنه كان يشاطر أبناء عصره هذا الشعور بحق تركيا ، كان يخالف الجمهور في قضية تقسيم أسلاب هذه السلطنة ، فيقول : « إنه لا يجوز أن نفتح بلدان تركيا ليستولي عليها الامبراطور ، بحجة أنه هو حامي النصرانية ، وأن تقويته لازمة ، بل يجب أن يكون لكل واحد حصته من أصلاب تركيا وأن تؤسس على أنقاض هذه السلطنة عدة ممالك مسيحية ، وأن لا يحصل خلل بالتوازن الأوربي ، وأن تعود بلاد اليونان إلى مثل ماضي مجدها ، ويعود وادي النيل الجميل إلى ما كان عليه[2] وأن تعاد النصرانية إلى تلك البلدان ، وترتب إدارة للأراضي المقدسة . . . . الخ » .

وقد تكلم دارغنسون عن وجوب اتفاق الدول المسيحية ، فقال : إنه

---

١ - نصارى شرق أوربا ، وفولتير هذا الذي يدعو لنصرة الأروام هو ممن اشتهر عنه الإلحاد ، فتأمل هذا التعصب ضد الإسلام .

٢ - أي أن تعود مصر إلى النصرانية القبطية كما كانت قبل الفتح الإسلامي ، فانظر إلى هذا التعصب وإلى هذا الخيال .

أجدر بها أن تتحد في شبه جمهورية مسيحية من أن تستمر في قتال بعضها بعضاً ، وهكذا تفتح ممالك الإسلام في أوربا وما صاقبها من سواحل أفريقيا الشمالية التي هي مجاورة لأوربا كثيراً ، كمملكة مراكش المجاورة لاسبانيا ، ومن سواحل آسيا الصغرى وسورية وفلسطين حيث الأراضي المقدسة .

المشروعان الخامس والخمسون والسادس والخمسون

أحدهما لكاترينا الثانية امبراطورة روسيا والآخر ليوسف الثاني امبراطور اوستريا وتاريخه سنة ١٧٧٢ .

قال دجوفارا : سنة ١٧٦٨ أعلنت تركيا الحرب على روسيا ، فانهزم الجيش العثماني[١] ودخل الروس إلى بلاد الفلاخ ، واستولوا على إسماعيل[٢] وبندر واكرمان ، وكذلك ساعد الإنكليز الروس في البحر

---

١ - منذ بطرس الأكبر وأطماع روسيا ليس لها حدود ، وقد جاءت فرصة للدولة العثمانية بالتحالف مع السويد ضد أطماع الروس ولكن لم تهتبلها ، وفي عهد السلطان مصطفى خان الثالث ، وقع الصدام مع الروس وانهزم الجيش العثماني ، ولكن ذلك لم يكن لقوة الروس ولكن مكان المعركة على ضفاف نهر (دينستر) كان له أثر على تقهقر الجنود بسبب الفيضان المفاجيء للنهر أثناء عبور الجنود ، وقد عاد العثمانيون فانتصروا على السفن الروسية عام ١٧٧١ .

انظر : محمد فريد / تاريخ الدولة العلية / ٣٣٥ .

قلت : نهر دنيستر هو الذي يفصل ما بين أوكرانيا ومولدافيا ويصب في البحر الأسود .

٢ - لعله يقصد مدينة (شكوكزيم) التي احتلها الروس بعد تلك المعركة .

تظهروا على الاسطول العثماني في (جشمه)[١] فتدخلت اوستريا في الخلاف ، فعرضت عليها تركيا لإرضائها تقسيم بولونيا ، فرضيت بذلك وانعقدت معاهدة تقسيم بولونيا في (٥) أغسطس سنة ١٧٧٢ وانصرفت بها اوستريا عن البلقان ، واضطرت روسيا بسبب اتفاق تركيا مع اوستريا أن تخلي الفلاخ والبغدان وتعيدهما لتركيا ، إلا أنه في المعاهدة الصلحية التي انعقدت في (كوجوك فانيناردجني) سنة ١٧٧٤ في ٢١ يوليو رضيت تركيا بأن يكون لروسيا حق الدفاع عن رومانيا أي مملكتي الفلاخ والبغدان .

وكانت أوستريا لاتزال طامحة إلى الإستيلاء على رومانيا ، وكتب البارون (توي غوت) سفير اوستريا في الآستانة إلى حكومته ما يلي : «عند سقوط السلطنة العثمانية القريب ، ينبغي أن تخرج ولاياتها الشمالية كبوسنة وصربيا ، والبغدان والفلاخ في نصيب اوستريا » .

وفي أيام كاترينا الثانية قيصرة روسيا ويوسف الثاني امبراطور النمسا اشتد الخطر علي السلطنة العثمانية أكثر من كل وقت ، نظراً لاتفاقهما على تقسيم هذه السلطنة ، وكانت كاترينا هذه ألمانية الأصل ، إلا أنها

---

١ - وكذلك يساعد الإنكليز الصرب (سراً) في معركتهم مع المسلمين في البوسنة ، التي بدأت عام ١٩٩١ ولم تنته بعد ، وقد زار رئيس وزراء بريطانيا روسيا في ١٩/ ٢/ ٩٤ لدعم روسيا .

وتقع مدينة جشمه في الرأس الممتد من بر الأناضول إلى الغرب من أزمير .

أفادت الروس ما لم يُفْده أحد من ملوكها ، وأكملت عمل بطرس الأكبر ، وأشاد بذكرها كبار العلماء مثل فولتير و (يدور) و (دالمبر) وغيرهم ، وحولوا الرأي العام صوبها ، وكان فولتير يوصي فريدريك ملك بروسيا بعدم معارضة كاترينا في مشروعاتها المتعلقة بفتح القسطنطينية .

وأما يوسف الثاني امبراطور أوستريا ابن فرانسوا الأول وماري تيريز فكان شديد العاطفة ، واسع الخيال ، سريع الحركة ، وكان فريدريك ملك بروسيا يقول عنه : إنه يحب العلم ، لكن ليس له صبر عليه ، وقد عرفت كاترينا بدهائها مكان ضعف يوسف الثاني فأخذت تتزلف إليه وتطريه بغير ما فيه ، وهكذا استولت على أفكاره ، وصار له بها اعتقاد شديد ، وكانت هي التي أقنعته بتقسيم بولونيا ، ووافقها على ذلك فريدريك ملك بروسيا . وهذا الملك كان يرى أن اوستريا لا يمكنها أن تترك روسيا تستولي على رومانيا ، فلذلك سعى في التعويض على روسيا من جهة بولونيا ، ولكن كاترينا لم تكن لتنزل عن مطامعها من جهة تركيا ، وكانت تطالب ببلاد آزوف ، وتضيق على السلطان العثماني في رفع سيادته عن القريم .

وتحاول الدخول في الفلاخ والبغدان ، وكانت اوستريا تعاكس جميع مشروعات الروسيا هذه ، ولذلك انتهى الأمر بالسماح للروس بأخذ الجانب الأعظم من بولونيا ووجدت اوستريا هذا الأمر أهون عليها

من تقدم الروسيا صوب الأستانة (١) ، وكانت اوستريا لو رأت من الروسيا إصراراً على فتح رومانيا مستعدة لمناجزتها الحرب ، وأخيراً رضيت روسيا أن تترك تركيا لرومانيا استقلالها التام ويولى على رومانيا أمير من بروسيا ، وما تم ذلك إلا فيما بعد ، إذ جاء أمير من بروسيا وجلس على عرش رومانيا بعد ذلك التاريخ بقرن كامل ، فأما في ذلك الزمن فإن النزاع بين الروسيا واوستريا على رومانيا قضى ببقاء هذه تحت السيادة العثمانية .

وكان فريدريك ملك بروسيا يختار هذا الرأي خشية أن يجر هذا الخلاف إلى حرب بين الروس والنمساويين ، ولقد جرى تقسيم بولونيا كما تقدم الكلام فداء للنزاع على رومانيا ، إلا أن أوستريا بقيت توّاقة إلى أخذ رومانيا وخائفة عليها من الروسيا .

وكان الروس لا يزالون يقترحون إتحاد الدول الثلاث ، الروسيا واوستريا وبروسيا لأجل إسقاط تركيا ، وكان ناظر الخارجية الروسية يقول : إن مسألة طرد الترك مما وراء نهر (دنيستر) لا تستحق إتحاد ثلاث دول عظام بل إتحاد دول ثلاث كهذه يجب أن يقضي على سلطانهم في كل أوربا ، وفي تقسيم كبير من آسيا ، إلا أن أوستريا كانت تخشى سقوط الدولة العثمانية التام لما وراء ذلك من استفحال أمر

١ - كأنه هذه الدول لا تستطيع العيش دون توسع على حساب الآخرين ودون تقسيم الدول المجاورة وتوزيع الغنائم فيما بينها ، وكأنه هذه هي الطبيعة الأوربية في استعمار العالم .

السلاف ، وقد قال الامبرطور يوسف الثاني للمسيو (دوسوغور) : إن القسطنطينية ستبقى دائماً محل منافسة بين الدول ، وتمنع من اقتسام تركيا ، وقد كتبت الامبراطورة ماري تيريز إلى الكونت (مرسي أرغنتاو) بتاريخ (٧) يوليو ١٧٧٧ ما يلي : « إن إقتسام السلطنة العثمانية لأعظم المشروعات خطراً ، وأوخمها عواقب ، وماذا نستفيد لعمري لو فتحنا كل هذه البلدان حتى صرنا على أبواب الآستانة ، إننا لا نفتح هناك إلا أقاليم وبيّة الهواء ، قليلة السكان ، متأخرة الثقافة ، أو مسكونة بأرواح خبثاء لئام ، يكون من شأنهم أن يستنزفوا قوى مملكتنا بدلاً من أن يزيدوها ، ثم إننا نخسر بهذا العمل ثقة الناس بعهودنا ، وهذا هو الخسران المبين[1] إن تقاسم السلطنة العثمانية أشد ضرراً من تقسيم بولونيا الذي لم أرض به إلا مرغمة حتى أجاري به جيراني ، فأنا لا أميل أبداً إلى تقسيم تركيا وأرجو أن أحفادنا أنفسهم لا يرونهم خارجين من أوربا » .

قلت : قد مضى على هذا الكلام مئة وخمسون سنة ولايزال الترك في الآستانة ، وفي ولاية تراقيا الشرقية من أوربا .

ولما ماتت ماري تيريز سنة ١٧٨٠ خلا الجو لكاترينا الثانية ، وأخذت تعمل دسائسها لدى يوسف الثاني لإقناعه بتقسيم تركيا ، وأرسلت إلى فرنسا أيضاً تقترح عليها الممالأة على هذا التقسيم ، وأن يكون لها مصر

---

١ - يترجم الأمير شكيب بلغته الأدبية الرفيعة .

من أصل الأسلاب ، وفي (٣٠) مايو سنة ١٧٨٠ تلاقت كاترينا مع يوسف واتفقا على إسقاط تركيا ، واستلحاق بعض أجزائها وإعادة الجمهوريات اليونانية القديمة .

ثم في سنة ١٧٨٢ كتبت إلى يوسف صورة معاهدة سرية ، واقترحت أن يكون التقسيم بحيث لا يقع بسببه تصادم بين الممالك الثلاث ، بل تؤسس مملكة من الفلاخ والبغدان مستقلة تماماً ، تمنع الإتصال بين الممالك الثلاث التي تخشى تجاورها ، ويكون ملك هذه المملكة الجديدة على المذهب المسيحي الأكثر عدداً في الفلاخ والبغدان .

أما الامبراطور يوسف فاستشار في مذكرة كاترينا وزيره البرنس (كونتيز) الذي أجابه بأن قبول اقتراح كاترينا على كل حال أقل ضرراً من رفضه ، وبأنه يخشى أن كاترينا إن يئست من اوستريا تعود فتتفق مع بروسيا ، فأجاب الامبراطور يوسف كاترينا بكتاب مؤرخ في ١٣ نوفمبر سنة ١٧٨٢ مؤداه أنه لا بد لنجاح مشروع التقسيم من قبول فرنسا ، وأنه من جهة تأسيس مملكة أرثوذكسية في رومانيا ، وأخرى في القسطنطينية فإن هذا كله يتوقف على نتائج الحركات الحربية ، وأما من جهة ما تقترحه النمسا في هذا التقسيم لنفسها فهو استلحاق قسم من الفلاخ مع ضفتي الدانوب إلى بلغراد ، ومن بلغراد يكون للنمسا على خط مستقيم إلى بحر الإدرياتيك مع دالماسيا وايستريا ، وأن تكون حرية التجارة تامة في نهر الدانوب عند مصبه وفي مضيق الدردنيل .

ولما بلغ فرنسا هذا المشروع قاومته أشد مقاومة ، وقالت إن هذا المشروع أشبه بأن يكون اتساع السلطنة الروسية من أن يكون تقسيم السلطنة العثمانية ، وقال المسيو (ڤرغن) للكونت (مرسي ارغنتاو) ما يلي : « لا يوجد في أوربا كلها دولة واحدة لا تبذل آخر جندي من جيشها وآخر درهم من مالها في سبيل منع انهيار السلطنة العثمانية » أما الامبراطورة كاترينا فأجابت الامبراطور يوسف بأنها لا تطلب لروسيا من الحقوق في الدولتين الجديدتين اليونانية والرومانية أكثر مما ترضى به لأوستريا ، وإن حرية الملاحة في البحرين : الأسود والأبيض تكون مضمونة ، وغاية ما في الأمر أنها تقترح عدم تصغير الدولة اليونانية ووجوب تسليمها المورة والأرخبيل .

وقد ظهر من هنا أن كاترينا بدأت تتعهد باسم الدولتين الجديدتين كأنهما من الممالك التابعة لها(١) .

قلنا : إن هذا المشروع قد تمَّ فيما بعد ، فتأسست دولة يونانية بعد هذا التاريخ بنصف قرن ، ودولة رومانية بنحو من قرن كامل ، ولكن لم يكن لروسيا أن تسيطر ولا على واحدة منهما ، هي قد غرست ولكن الثمرة لم تكن لها .

ثم إن كاترينا أعادت السعي الحثيث لدى الامبراطور يوسف في إتمام

---

١ - كانت روسيا وماتزال تفرض نفسها حامية للنصارى الأرثوذكس ، ولذلك فهي تدافع عن الصرب في هذه الأيام .

مشروع تقسيم تركيا ، وكان الامبراطور لا يزال يتذبذب في الموضوع نظراً لشدة اعتراض فرنسا على هذا التقسيم ، وجاء من فرنسا إلى أوستريا مذكرة صريحة بأن مشروع تقسيم كهذا شديد الخطر وبليغ الضرر لا سيما بمصلحة أوستريا . فأجاب عليها الامبراطور يوسف بأنه لم يمكن منع الحرب بين روسيا وتركيا ، ومن أجل ذلك لا يمكنه لأجل سلامة سلطنته في الوقت الحاضر وفي المستقبل أن يشاهد مجرى الحوادث من بعيد .

فعند ذلك قدم (برتيليمي) سفير فرنسا في فيينا مذكرة شديدة للنمسا ينتقد فيها خطتها ويقول « إنه بينما الأتراك يحافظون على عهودهم معها إذا هي تنتهز فرصة ضعفهم(١) وتحاول أن تضربهم ضربة قاضية لتقسيم ميراثهم . . . الخ » وفي آخر المذكرة شيء من التهديد مما ساء وقعه جداً على الحكومة النمساوية ، وأوجب توتر العلاقة بينها وبين فرنسا .

وفي (٨) يناير سنة ١٧٨٤ اضطر الباب العالي أن يعقد مع روسيا معاهدة يتخلى بها لها عن شبة جزيرة القريم(٢) ثم حدثت ثورات في

---

١ - كلمة حق خرجت من كلام السفير الفرنسي ، ولكن هل فرنسا التزمت في كل معاهداتها مع الدولة العثمانية هذا الخلق ؟ ، أم تتظاهر به حين يكون ذلك في مصلحتها ؟ .

٢ - لا شك أن لروسيا الأثر الأكبر في إضعاف الدولة العثمانية ، فهي التي كانت تعقد التحالفات مع النمسا وبروسيا لاقتسام بولندا حتى تتفرغ الدولة العثمانية ، =

بلاد المجر وترانسلفانيا حالت دون استيلاء الامبراطور يوسف على قسم من الفلاخ ، وأشقّ من هذا كان عليه ، خروج بلجيكا من يده فمات من بعد هذه الحوادث غماً ، وتوقف كل شيء .

المشروع السابع والخمسون

المنسوب إلى لنغة) وتاريخه ١٧٧٤ إلى ١٧٧٦ كان لنغه هذا محامياً صحفياً إفرنسياً ، خدم الإمبراطور يوسف عاهل النمسا ، وبعد أن أقام زمناً في اوستريا ، وقعت وحشة بينه وبين الامبراطور ، ففارقه وعاد إلى باريس ، وهناك قتله رجال الثورة الفرنسية ، بحجة أنه كان مؤيداً للملوك الظالمين كامبراطور اوستريا وملك انكلترا ، وقد حرّر (لنغه) هذا المشروع أيام إقامته ببروكسل سنة ١٧٧٥ أو ١٧٧٦ وقدمه إلى الخارجية الإفرنسية ، وقد بقيت منه نسخة غير مطبوعة في المكتبة الملوكية ببروكسل ، وكان (لنغة) كاتباً شهيراً قال عنه فولتير : إنه

= ولم تنتبه الدولة العثمانية لسياسات روسيا التوسعية إلا بعد فوات الأوان ، ولم تستفد من خلافات فرنسا مع النمسا وروسيا لإيقاف التوسع الروسي ، وإنه من المناسب هنا أن أنقل فقرة من وصية بطرس الأكبر التي سارت على إثرها كاترينا .

١ - ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند ، وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها ، فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة ، تارة مع الدولة العثمانية ، وتارة مع الدولة الإيرانية .

٢ - ينبغي تحريض العائلة المالكة في اوستريا (النمسا) على طرد الأتراك .

٣ - ينبغي أن نستميل جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم الأرثوذكس ، وأن يتخذوا روسيا مرجعاً لهم . انظر : تاريخ الدولة العلية / ٣٣٠ .

يحترق لكنه في أثناء حريقه يضيء . وقد سمى لنغه مشروع « طرد الترك من أوربا وتأسيس توازن سياسي جديد » فقال فيه أنه لا خطر على أوربا إلا من غارة تركية أو روسية ، وقال كلاماً آخر عميق الغور وهو أنه إذا اقتضت السلم العامة اقتطاع نصف تركيا ، صار الأتراك أشد خطراً من ذي قبل بشدة تمرسهم بالقتال . وقال إن حصن أوربا من جهة الشرق كان بولونيا ، وها هي قد سقطت ولقد بقيت ألمانيا هي الحصن الحصين لأوربا من غارات الترك ، ولا شك أن ألمانيا قد أنقذت أوربا من عادية الترك مراراً إلا أن الامبراطورية الجرمانية تشتمل على عناصر متعددة هي سبب كبير في ضعفها ، فماذا تستفيد أوستريا من هولندا مثلاً ؟ ثم أخذ لنغه يذكر أمراض أوربا السياسية ويعددها ، وأشار بتوسيع اوستريا من جهة تركيا ، وقال إن روسيا لا تقدر أن تمنع تدخل أوربا في هذه المسألة ، وإجمال كلامه هو أن بروسيا هي معقل أوربا من جهة الروس ، وأن اوستريا هي معقل أوربا من جهة الترك ، وأنه يجب التعويض على فرنسا لأجل التوازن الدولي بإضافة هولندا إليها .

المشروع الثامن والخمسون

وهو مشروع (دوكارا) وتاريخه سنة ١٧٧٧ ، كان دوكارا هذا ناموساً[١] لأمير البغدان ثم للكردينال (دوروهان) ثم صار قيّماً لخزانة كتب الملك في باريس ولما ثارت الثورة الفرنسية دخل في زمرة (اليعقوبيين)[٢] ثم انحاز إلى الجيرونديين[٣] ، ثم قتله رجال الثورة وله تصنيف اسمه « بحث سياسي يتضمن اقتراح تقسيم تركيا » بدأ فيه بقوله : إن تركيا أصبحت بحالة يمكن فيها لفيلسوف نفسه أن يشير بفتحها ، ثم ذكر اتفاق روسيا واوستريا على تركيا ، وتقدم اوستريا في رومانيا ، وتقدم روسيا في القريم وكرجستان وبلاد التتر والصين ، وقال إنه يجب تقوية بروسيا لتكون حاجزاً منيعاً بين روسيا والنمسا ، وكذلك تنبغي الموازنة بين قوى النمسا وروسيا وبروسيا وفرنسا ، ثم قال إن الأتراك

---

١ - صاحب السر .

٢ - جماعة سياسية متطرفة ، نشأت مع الثورة الفرنسية ، كانت تسمى بـ (نادي بريتون) وسميت باليعوقبيين بعد انتقالها إلى مقر الآباء اليعقوبيين ، تحولوا إلى أداة قهر ورعب تحت زعامة (روبسبير) لقتل المعارضين للثورة .
انظر : Chambrs dictionary of World history 1993.

٣ - مجموعة من نواب المجلس التشريعي الفرنسي الذي شكل عام ١٧٩١ على أثر الثورة الفرنسية ، ومعظمهم من منطقة جيروند ، ويجمعهم الرغبة في إقامة دولة يديرها أبناء الطبقة الوسطى وقد عارضهم في ذلك تكتل اليعاقبة ، دخل الجيرونديون في حرب متسرعة مع بريطانيا وهولندا وإسبانيا ، فكانت التراجعات العسكرية مبرراً لانتقادات اليعاقبة ، وقد أعدم أبرز قادتهم .
انظر : الموسوعة السياسية ٢/ ١٢٧ .

هم الأعداد الطبيعون الأبديون للمسيحيين ، كما أنهم هم أعداء العلوم والصناعات ، فيجب طردهم من أوربا[1] .

المشروع التاسع والخمسون

ولم يعرف اسم صاحبه ، وتاريخه سنة ١٧٨٨ وهذا المشروع تضمنته رسالة اسمها (خيال سياسي لتقسيم جانب من السلطنة العثمانية) وقد ذكر هذا الكاتب المجهول أنه يجب إخراج الترك من أوربا والأناضول وسورية وفلسطين ، وجميع شواطيء البحر المتوسط وأنه يجب تأسيس مملكة مؤلفة من تركية أوربا إلى حد بوسنة ومعها سواحل الأناضول إلى ما يقابل رودس ، وتكون هذه المملكة لفرنسا ، ثم تأسيس مملكة مؤلفة من الأناضول وأرمينية وكرجستان تعطى لروسيا ثم تأسيس مملكة مؤلفة من بولونيا وكورلند ، والبوجاق يكون عليها دوق توسكانا[2] ويكون لفرنسا أيضاً مصر وللامبراطور[3] الفلاخ والبغدان ، ولروسيا القريم والقوبان ، ثم تتأسس المملكة مؤلفة من سورية وفلسطين يكون صاحبها الدوق فيليب الاسباني ، وتتأسس مملكة لاسبانيا أيضاً في مراكش ، وتنقسم إيالات الجزائر وتونس

---

١ - هذه هي نظرة الأوربيين للمسلمين ، وقد يخفونها أحياناً ولكن الأحزاب العنصرية التي ظهرت أخيراً أبانت عن حقيقة نظرتهم ، وأما اتهامه للأتراك بأنهم أعداء العلوم ويقصد بالأتراك المسلمين عموماً ، فهذا قول باطل مردود .

٢ - أمارة إيطالية .

٣ - إمبراطور النمسا .

وطرابلس بين اسبانيا وسروانيا ومودينا[1] . وتكون حرية البحار مضمونة للجميع ، وكذلك حرية المرور بالبواغيز[2] مثل البوسفور والدردنيل وجبل طارق .

المشروع الستون

وهو مشروع (فولناي) وتاريخه سنة ١٧٨٦ فالكاتب الإفرنسي الشهير فولناي أعلن تأييده للسياسة الروسية السلافية في رسالة نشرها تحت عنوان « اعتبارات في الحرب الواقعة مع الأتراك » . وكان الروس قد أعلنوا الحرب على الترك ، وحبس الباب العالي سفير روسيا في الآستانة ثم انضمت اوستريا إلى روسيا وأعلنت الحرب أيضاً على تركيا في (١٧) سبتمبر سنة ١٧٨٨ .

فبدأ فولناي بذكر الممالك التي افتتحها الترك في أقل من أربعمائة سنة ، وقال إنهم أحسنوا فتح أجمل بلدان العالم وأعظمها ، إلا أنه من نحو مئة سنة ظهرت دولة اسمها روسيا كانت قبل هذا التاريخ مجهولة فتقدمت بسرعة مدهشة وأصبح المستقبل لها ، وسواء كان في العالم المادي أو في العالم الأدبي ، إذا بدأ الجسم يتحرك كان استمرار حركته بقدر جسامته ، ثم قال فولناي إن تركيا يجب أن تنقرض[3] وأنه كما

---

١ - إمارة إيطالية .

٢ - الممرات المائية .

٣ - مضى على كلام الفيلسوف فولناي مئة وأربع وأربعون سنة ولم تنقرض تركيا ، ولم تزل صاحبة القسطنطينية والأناضول (ش) .

أمكن الإتفاق على تقسيم بولونيا بين حكومتي فيينا وبطرسبرغ يمكن اتفاقهما على تقسيم تركيا[١] ، ولقد أشار فولناي على فرنسا وطنه بالإتفاق مع روسيا وجعلها الحليف الطبيعي لها[٢] وبعدم معارضتها في نزع القسطنطينية من يد تركيا ، أما تاج القسطنطينية فيشير فولناي بإعطائه إلى امبراطور يوناني وأن يكون له المورة والأرخبيل ، وأن يكون المرور بالبوسفور حراً ، وأما اوستريا فتعطى ألبانيا وبوسنة وسواحل الادرياتيك ، كما أنه يجب أن يؤول إلى روسيا بلاد الفلاخ والبغدان والبلغار وذكر فولناي أن الآراء مقسمة في فرنسا فيما يجب أن تعتاض به فرنسا على افتراض سقوط تركيا ، فبعضهم أشار بأخذ المورة وإقريطش وقبرص ، وآخرون مالوا إلى فتح مصر ، وفولناي لا يرى في المورة والجزر طائلاً كما أنه يخشى إذا تعرضت فرنسا لمصر أن تقع في حرب مع تركيا وانكلترا والمصريين[٣] ، وكان من رأيه أن تتجرد فرنسا وقتئذ لإصلاح أمورها الداخلية وتكتفي بذلك .

ومما أصاب به فولناي قوله إن مهاجمة هذه الدول لتركيا سيفيد تركيا والشرق ، ويبعث يقظة عند الشرقيين ، وقال إن شعوب تركيا أعظم استعداداً في كثير من الأمور من الشعوب الأوربية ، لا سيما أهل

---

١ - نشر الله بولونيا من قبرها ، بينما روسيا جمهورية شيوعية واوستريا سلطنة في الغابرين ، لم يبق منها إلا الجزء الثامن مما كانت (ش) .

٢ - أما هذا فقد تحقق من بعد مئة سنة من كلام فولناي .

٣ - في هذه صح كلام هذا الفيلسوف لأن كل هذا حصل في زمن نابليون ، بعد كلام فولناي ببضع عشرة سنة (ش) .

الشمال منها . قلنا [1] : ومما لا مشاحة فيه أن أهل الأقطار الشمالية من أوربا[2] يغلب عليهم شيء من البلادة ولكن هذا الجنس من البشر يمتاز بالثبات والجد في العمل وهكذا أصبح في هذا العصر أرقى الأجناس وأكملها مدنية[3] برغم بلادته .

ولقد رد على فولناي رجل يقال (شارل دو بيسونل) وكان قنصلاً فرنسا في أزمير ، ونشر رسالة قاوم فيها السياسة الروسية مقاومة شديدة وسفّه رأي فولناي وأظهر تناقضه ، إذ بينما هو يظهر الخوف من تبسط دول مفرطة الإتساع ، يشير بزيادة تكبير روسيا فوق ما هي عليه ، ثم قال هذا الرجل إن انكلترا ستقاوم توسع دول كبيرة إلى هذا الحد لأن وجودها يوقع خللاً بالتوازن الدولي ، وإن فرنسا يصيبها من ذلك خسار كبير إن رضيت به .

ومن أهم ما لحظه (بسيونل) هو أنه إن تقدمت روسيا صوب البلدان العثمانيه ، ودخلت هذه في حوزتها جاء وقت تأسف فيه المسيحيون الذين في هذه البلدان على الحرية التي يتمتعون بها في ظل الترك ، وذلك بما سيقاسونه من فظائع الإستعباد الروسي الذي يعرفه جميع الشعوب التي دخلت تحت حكم روسيا[4] .

---

١ - أي الأمير شكيب .

٢ - مثل ألمانيا وبريطانيا والسويد والدانمرك .

٣ - طبعاً هذا كلام نسبي ، فهو رقي مدني دنيوي بالنسبة لما عليه شعوب العالم اليوم ، ولكن لا يقاس هذا بالرقي الإسلامي إذا تحقق في الواقع .

٤ - أعرف الناس بهذا المسلمون التي حكمهم الروس .

وأخذ (بسيونل) يذكر التوحش الذي كان لا يزال عليه الشعب الروسي ، وكيف أن أكثره أرقّاء للأمراء وكيف أن بلادهم أكثرها غابات أشبة[١] تسكنها الوحوش الضارية ، وخاطب فولناي قائلاً : « أمن مثل هؤلاء تنتظر الخير » ؟ .

ثم أخذ (بسيونل) يصف المسامحات العظيمة الخارقة للعادة التي يتمتع بها المسيحيون في ظل سلاطين آل عثمان ، ويذكر الإمتيازات المعطاة للأجانب مما لا يمكن أن تعطيه دولة أخرى ، وقال : « إن جميع ما في تركيا من الأوضاع يهيئها لتكون سلطنة عظيمة ، وإنما هي محتاجة إلى رجل عظيم ينفذ ذلك »[٢] وختم بسيونل كلامه بما ستتعرض له فرنسا من الخطر إذا سمحت لروسيا وأوستريا بتقاسم أملاك تركيا .

---

١ - أشبة : ملتفة .

٢ - هل يصدق هذا على المسلمين اليوم ، فهم بحاجة إلى قيادة بصيرة تنقذهم مما هم فيه .

المشروع الواحد والستون

وصاحبه (دوبريون دولاتور) وتاريخه ١٧٨٨ وهذا الرجل قد ردّ أيضاً على فولناي واتهمه بالضلع مع روسيا ، وحرر هو مشروعاً خاصاً به سماه « اقتسام جلد الدب » أو « رسالة إلى صاحب حلم تقسيم السلطنة العثمانية » .

وقد بدأ (دولاتور) هذه الرسالة بإثبات أن الأتراك لم يكونوا معتدين ، وأن سلطنة روسيا أصبحت واسعة جداً ، وأنه ليس يكون إصلاحاً لحال المسيحيين الذين تحت حكم تركيا إدخالهم تحت حكم روسيا . وقال إنه لا يمكن تقسيم سلطنة عظيمة كالسلطنة العثمانية بدون حروب ومنازعات ، لا سيما بين روسيا واوستريا ، غير أن (دولاتور) أشار بمشاريع تقسيمية للسلطنة العثمانية ولبلاد المسلمين كسابقيه من أصحاب المشاريع وقد حدث أن انكلترا أرادت التقرب من كاترينا امبراطورة روسيا واقترحت عليها تقاسم النفوذ في شرق أوربا والشرق الأقصى ، فامتنعت كاترينا من إجابة اقتراحها فعادت انكلترا واتفقت مع بروسيا بموجب معاهدة (١٣) أغسطس سنة ١٧٨٨ وقررتا أن تكون يداً واحدة في أمور الشرق ، ثم أخذت انكلترا تدافع من ذلك الوقت عن وجود تركيا توقيفا لامتداد روسيا ، وقد استفادت تركيا مدة طويلة من هذه السياسة[١] .

---

١ - لا يستفيد أحد الآن من ساسة العالم الإسلامي - إن كان هناك ساسة - من تضارب مصالح الدول الكبرى .

المشروع الثاني والستون

وهو مشروع هرتزبرغ وتاريخه ١٧٩٢ م وكان هذا الرجل ألمانياً ، وكان من العلماء والمؤلفين وتقلد نظارة الخارجية البروسية لعهد فريدريك الكبير ، ثم لعهد (فريدريك ويلهلم) الثاني ، وصار له الحَوْل والطول ، وفي أيامه صارت برلين مركز السياسة في أوروبا .

وكانت خلاصة اقتراح هرتزبرغ أن تأخذ روسيا سواحل البحر الأسود إلى مصب الطونة(١) ، وأن تأخذ اوستريا الفلاخ والبغدان ، وترد في مقابلة ذلك غاليسيا للبولونيين وهؤلاء يتخلون عن (تورن) و (دانتزيغ)(٢) لبروسيا .

وكان هرتزبرغ قد كتب إلى سفير بروسيا في الآستانة في(٣) ابريل سنة ١٧٨٨ قائلاً له : « إذا كان الباب العالي سيضطر للنزول عن إحدى ولايته فليعمل ذلك بواسطة بروسيا ليمكن هذه أن تنال عوضاً من جهة أخرى ، فإن لم يفعل اضطرت بروسيا إلى التحالف مع الامبرواطوريتين والدخول في الحرب معه » .

إلا أن الأتراك كانوا في أول هذه الحرب غالبين فلم يرعهم هذا الإنذار ، واشترطوا على هرتزبرغ لقبول اقتراحه أن يعلن الحرب على

---

١ - نهر الدانوب .

٢ - من هذا الميناء البولوني على بحر البلطيق ، انطلق تضامن العمال ، ليقوض الشيوعية في بولندا ، ويكون رئيس التضامن هو رئيس بولندا ، وكان هذا بدعم ومساعدة من الغرب .

النمسا ، وفي (٣٠) يناير سنة ١٧٩٠ انعقدت معاهدة لصلح على أن تعود إلى تركيا جميع الولايات التي كانت خسرتها ومن جملتها القريم فخاب أمل هرتزبرغ من جهة استلحاق بلدان كان يرجو الإستيلاء عليها بواسطة هذه الحرب ، وكان الامبراطور يوسف الثاني أشد الناس معارضة لتبسُّط بروسيا وكتب في ٧ يناير ١٧٨٨ إلى (مرسي أرغنتاو) يقول له : « لا أقدر أن أرى في ملك بروسيا إلا عدواً لبيتي ، ولا أرى في كل زيادة يزدادها إلا نقصاً من قوتي » . أما فرنسا فقد كانت استحسنت عدم توسيع بروسيا من أملاك المسألة مع روسيا ، ولم ينفذ شيء من مشروع هرتزبرغ هذا .

المشروع الثالث والستون

وهو مشروع تاليران وتاريخه سنة ١٨٠٥ كان تاليران أشهر من أن يعرف ، ولد في باريس عام ١٧٥٤ ومات فيها سنة ١٨٣٨ ، وكان ناظراً للخارجية الإفرنسية مدة طويلة في أيام نابليون الأول ولويس الثامن عشر . وهو من نوابغ الدهر في السياسة يضرب به المثل ، وقد كثر في زمن تاليران التحدث بتقسيم السلطنة العثمانية أكثر من ذي قبل لأن عصر نابليون كان عصر حروب وانقلابات وثلّ عروش ، وهدم ممالك وتأسيس ممالك ، فلا عجب أن يكون تقسيم هذه السلطنة أصبح محور الكلام ، قال (فندال) : لم يكن في ذلك الدور رجل سياسة إلا وعنده برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية هو محتفظ به لوقت الحاجة .

أما تاليران فلم تكن سياسته ترمي إلى غرض الإتحاد مع روسيا ، بل كان يرى تقوية العنصر السلافي خطراً ، ويجب أن يعزز اوستريا في وجه السلاف ، ولتاليران تقرير حرره في ستراسبورغ في (١٧) اكتوبر سنة ١٨٠٥ وقدمه لنابليون ، ومآله الإتفاق مع اوستريا دون بروسيا كما أنه يفصل مصالح اوستريا عن مصالح انكلترا ، ويحاول توجيه الجميع إلى مقاومة روسيا ، وقاعدة تاليران السياسية في الشرق كانت هي أن الترك صاروا الآن لا تخشى غائلتهم ، بل صاروا هم يخشون غوائل الآخرين ، وقد قام مقامهم الروس ، وصاروا خطراً على أوربا[1] ، وليس لأوربا الآن في وجه الروس حضن أمنع من النمسا ، فيجب تقويتها لتثبت أمام روسيا .

وكان تاليران يريد إعطاء الفلاخ والبغدان وبسارابيا وشمالي بلغاريا للنمسا منعاً لامتداد روسيا إلى الجهة الأوربية ، وكان يقول لبونابرت « بعد أن تهزم جيوش النمسا في معركة فاصلة يكون من باب الحزم أن تقول للنمسا : احتلي الفلاخ والبغدان وبسارابيا ، وأنا أحمل الباب العالي على تخليتها لك . وإن عارض الروس في ذلك كنت معك عليهم ، وهكذا تعقد مع النمسا أمتن صلح بعد أن تكون أحرزت عليها أبهر نصر » .

وكان تاليران قاطعاً الأمل من نهضة تركيا ، ذاهباً إلى أن اقتطاع كثير

---

١ - دارت الدائرة الآن وذهب خطر الإتحاد السوفييتي ، وعادت أوربا لتقول : إن الخطر هو الإسلام .

من ولاياتها يزيدها قوة ولا يضعفها كما يظن(١) وأنه يمكن إعطاء هذه الولايات الدانوبية لامبراطورية اوستريا وعقد معاهدة بينها وبين الباب العالي تتعهد بها هذه الامبراطورية بالمحافظة علي سلامة السلطنة العثمانية ، ولكنه كان يريد أن يقتطع من اوستريا بعض مقاطعات من جهة ايطاليا بمقابلة ما كان يقترحه من إضافة الفلاخ والبغدان وبسارابيا(٢) إلى اوستريا .

وقد كان رأي تاليران هذا من الصواب بمكان ، ولكنه لم يكن ضرورياً إعطاء رومانيا وبلغاريا لامبراطورية النمسا من أجل وضع هذه في وجه روسيا ، فإن المناظرة بين هاتين الدولتين كانت واقعة لا محالة بهذا وعدمه . على أن الامبراطور نابليون ردّ اقتراح تاليران ومال إلى التحالف مع روسيا كما سترى .

المشروع الرابع والستون

وهو مشروع نابليون الأول ، واسكندر الأول وتاريخه سنة ١٨٠٨ . قال نابليون في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة : « تذاكرت مراراً مع الروس في أمر قسمة السلطنة العثمانية ، وكان ذلك ممكناً لولا القسطنطينية التي كانت دائماً سبباً لمنع الإتفاق ، فقد كان الروس يريدونها ، وأنا لم أكن أرض باستيلائهم عليها ، فإن القسطنطينية

١ - ذلك لأن الدولة العثمانية ربما تتفرغ عندئذ للإصلاح الداخلي ويكون هذا مصدر قوتها ، ولو أن الدولة تنازلت عن الدول الأوربية النصرانية المشاغبة ولم تنفق كل ميزانيتها في سبيل استمرار السيادة عليا ، لكان ذلك أفضل .

٢ - إقليم يقع إلى الغرب من مدينة كونستنزا الرومانية على البحر الأسود .

وحدها مملكة ومن مَلك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا » وقال نابليون مرة أخرى (القسطنطينية مفتاح العالم » إلا أنه في قضية السلطنة العثمانية لم يكن على رأي ثابت ، فتارة كان يميل إلى مجاراة روسيا في فصم عراها وطوراً كان يأبى ذلك كل الإباء(١) وقد كتب إلى (سباستياني) سنة ١٨٠٦ بخط يده : « إني لا أريد تقسيم السلطنة العثمانية ، ولو أخرجوني بثلاثة أرباعها ، إني لا أرضى بذلك أصلاً ، وكل ما أريده إنما هو تقوية هذه السلطنة في وجه روسيا » .

وقد كانت علاقات نابليون مع اسكندر الأول قيصر روسيا باديء ذي بدء غير متينة ، بل كانت أقرب إلى التراخي وكانت حاشية اسكندر أضداد سياسة الإتفاق مع فرنسا ، وأنصاراً لسياسة الإتفاق مع انكلترا إلا أن نابليون كان يتزلف إلى اسكندر ، وقال لسفيره ماركوف سنة ١٨٠٢ : ألا يوجد في أمراء الأسرة المالكة في روسيا من يرث عرش القسطنطينية » .

ولما توج نابليون امبراطوراً على فرنسا(٢) حصل تحالف دولي عليها مؤلف من روسيا والسويد وانكلترا وبروسيا وتركيا(٣) ونابولي واقترح تاليران على نابليون عقد اتفاق مع النمسا ، إلا أن نابليون بقي يؤثر

---

١ - هكذا أحوال العسكريين الديكتاتوريين أصحاب مزاج متقلب .

٢ - عام ١٨٠٤ .

٣ - كان المفروض بالدولة العثمانية أن تستغل الخلاف فيما بينهم ولا تدخل طرفاً في هذا الصراع .

سياسة التقرب إلى روسيا . وقال للبرنس (دولغوردكي) : « لماذا يحاربني الامبراطور اسكندر ؟ ماذا يريد مني ؟ ما عليه إلا أن يوسع حدود مملكته من جهة ممالك جيرانه لاسيما الترك ، وحينئذ يرى أن ليس بيننا وبينه خلاف » .

ولما انتصر نابليون في وقعة (اوسترليتز)[١] الشهيرة عام (١٨٠٥) عقد اتفاقاً مع بروسيا تقررت فيه سلامة أملاك السلطنة العثمانية . وأغرى نابليون الترك بمحاربة الروس ، فآذنوهم بحربهم في (٢٧) ديسمبر ١٨٠٦ وهزموهم[٢] ، وبعد ذلك رضي الامبراطور اسكندر بتدخل فرنسا في الصلح بين روسيا وتركيا .

وكتب تاليران في ٢٧ يناير سنة ١٨٠٧ إلى سفير فرنسا في فيينا يقول له : إن عقدة العقد كلها هي تركيا ، وأنه من الواجب المحافظة على وجودها إلى أن نرى إمكان حفظها بأجمعها مستحيلاً فيجب حينئذ الإتفاق بين النمسا وفرنسا على قضية تقسيم أنقاضها .

ثم إنه بعد معركة (فريدلاند) وغلبة نابليون على الجميع ، تلاقى مع اسكندر في (٢٥) يونيو سنة ١٨٠٧ بقرب (تيلسيت)[٣] واتفق معه على مقاسمة سرية هذا نصها : « إن كان الباب العالي لم يقبل وساطة

---

١ - انتصر فيها على روسيا والنمسا .

٢ - عجيب أن تستجيب الدولة لإغراءات نابليون ، وهو في السر يريد أن يتقاسم هذه الدولة مع روسيا ، انظر : الدولة العلية / ٣٩٥ وتعليق المؤلف على هذه الأحداث .

٣ - قرية شرق بروسيا على نهر (نيمن) .

فرنسا ، أو قبلها ومضت ثلاثة أشهر على المفاوضات ولم تأت بنتيجة حسنة ، تتفق فرنسا مع روسيا وتخلصان من يد تركيا جميع ولاياتها الأوربية مستثنى من ذلك الآستانة وولاية الروملي (١) .

وأرسل اسكندر الأول إلى الكونت (تولستوي) سفيره في باريس يطلب بسارابيا والفلاخ والبغدان ، وقلاع : بندر واكرمان وإسماعيل وهوتين وساحلاً من الساحل الشرقي من البحر الأسود ، وكان نابليون لا يزال متردداً في الموضوع خائفاً من أنه إذا سقطت السلطنة العثمانية تقوى روسيا كثيراً وتستفيد انكلترا من تلك الفرصة فتستولي على مصر وكان نابليون يقترح على قيصر روسيا ثلاثة وجوه : أحدها أن يخلي الروس الفلاخ والبغدان وبمقابلة ذلك يخلي الفرنسيس ما احتلوه من أرضي بروسيا ، والثاني أن يأخذ الروس هذه الولايات الرومانية ، وتأخذ فرنسا في مقابلها ولاية سيليزيا من بروسيا ، الثالث أن يجري تقاسم السلطنة العثمانية على وجه تعرف فيه فرنسا من قبل ماذا سيخرج من نصيبها .

وكان اسكندر الأول يعرض على نابليون بمقابلة سيلزيا ولايات

---

١ - هذا قريب من حالته اليوم (ش) .

قلت : هذا هو الغدر بعينه ، فهو من جهة يحرض تركيا على روسيا ، ومن جهة أخرى يبحث في تقسيمها مع روسيا ، ولقد تفنن الأوربيون - وخاصة الإنكليز - في الإستفادة من المعاهدات بما يضعونه من شروط ، وهي في الغالب شروط ملتوية مبهمة ، ثم يفسّرونها تفسيراً يناسب أغراضهم ، والمتابع لقرارات الأمم المتحدة سيجد نموذجاً منها وخاصة في قضية فلسطين .

عثمانية مثل المورة وألبانيا ، ولكن نابليون كان متمسكاً بسيليزيا ، وفي سنة ١٨٠٨ كان هنا برنامجان أحدهما فرنساوي والآخر روسي ، فالبرنامج الفرنساوي كان يعطي فرنسا جميع سواحل الأدرياتيك واليونان إلى سلانيك ، أما الروس فكان يعطي روسيا الإمارات الرومانية وقسماً من صربيا مع ساحل مرمرة الأوربي مع القسطنطينية وبعض سواحلها الاسيويه .

وفي ذلك الوقت كتب السلطان كتاباً خاصاً إلى نابليون يستمدُّه فيه أن يحافظ على سلامة السلطنة العثمانية فأخذ نابليون يشوق الامبراطور اسكندر في التبسط إلى جهة الشمال ، وهكذا استولت روسيا على فنلندا ، وبينما كانت روسيا وفرنسا تتنازعان على هذه القسمة وكل منهما تشد من جهتها ، إذ جدّت حوادث ذات بال في تركيا وأسبانيا واوستريا ، وكثرت المشكلات على نابليون ، فمال للتساهل ، وأرسل إلى سفيره (كالنكور) بأنه حاضر لإخلاء البلاد التي يحتلها من بروسيا بدون مطالبة روسيا بإخلاء الفلاخ والبغدان .

ثم تقرر أن الامبراطورين يلتقيان في (أرفور) من بلاد الساكس ، وقد وصل إليها نابليون في ٢٧ سبتمبر ١٨٠٨ ووصل اسكندر وأقاما بها ١٨ يوماً ، وابتدأت المفاوضات وتقرر أن نابليون يرضى بأن الفلاخ والبغدان تصيران ملكاً لروسيا ، ويصير الدانوب هو الحد الفاصل ، ولكن اشترط حفظ هذا السر مؤقتاً وعدم القيام بحركات عسكرية ، وأما من جهة سائر أملاك تركيا ، فتقرر بينهما عدم البت في شيء بدون اتفاق سابق .

ورجع الامبراطور اسكندر غير راض باطناً من نابليون وصار يتربص به الدوائر ، ولما انكسر جيش نابليون في أسلينغ كان أول شامت به الامبراطور اسكندر وبلغ هذا نابليون فحقد عليه ، وكان بذلك انتهاء الصداقة بين نابليون واسكندر ، ثم جاءت بعدها الحرب بينهما .

المشروع السادس والستون

المنسوب إلى مترنيخ[١] وتاريخه ١٨٠٨ .

قال دجوفارا : ليس هنا محل ميترنيخ وزير أوستريا الشهير الذي نفى حياته يجتهد في تثبيت تركيا كما هو معلوم ، إلا أنه اضطر في آخر الأمر أن يلقي دلوه في الدلاء من جهة هذه المسألة . وكان ميتزنيخ يقول : « إن وجود السلطنة العثمانية والمحافظة عليها وإن كان فيهما كثير من المخالفة للمدنية المسيحية فهما خير لأوربا »[٢] .

وكان ميترنيخ ممن ساعد انكلترا على منع استيلاء فرنسا على وادي النيل ،وكان يشهد للباب العالي بحسن المحافظة على المعاهدات[٣] ويقول إن متاخمة تركيا كمتاخمة البحر لا تتغير بها الحدود ، بل تبقى

---

١ - سياسي نمساوي شهير ، ولد سنة ١٧٧٣ ، عين سفيراً للنمسا في باريس سنة ١٨٠٦ ورئيساً لمؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ الذي عقد لتسوية حالة أوربا بعد سقوط نابليون ، اشتهر هذا الوزير بمعارضة انتشار الحرية في أوربا . انظر : الدولة العلية / ٤٥٧ .

٢ - انظر إلى هذه الفوقية ، وهل بلغت المدنية المسيحية في يوم من الأيام مبلغ المدنية الإسلامية في التسامح وترك العصبيات والعنصريات .

٣ - لأن الغرب لا يحافظ على وعوده ومواثيقه في الغالب .

على وتيرة واحدة وكان إذا فكر في استحالة بقاء السلطنة العثمانية ، وأنه لا بد من أن تحل في الآستانة دولة مسيحية ، يقول : « إن تلك الدولة ستكون حليفة للنمسا » يعني بذلك أن الدولة المسيحية التي ستتولى القسطنطينية استئنافاً ستكون اليونان أو البلغار .

وقال تاليران[١] لمترنيخ في ١٨ يناير ١٨٠٨ ما يأتي : إن الامبراطور (نابليون) يفكر في مشروعين : أحدهما مؤسس على قواعد صحيحة ، والثاني هو من باب القصص والخيال ، فالأول هو تقسيم تركيا ، والثاني هو غزو الهند[٢] ، وعلى كل حال ففرنسا وروسيا ينويان اقتسام تركيا « فأظهر ميترنيخ عدم ارتياحه لمشروع تقسيم تركيا وقال له : « إننا نحن أصح حكماً في مسائل تركيا لأننا نحكم فيها بدون ضلع[٣] ولأننا بناء على ذلك نبغي بقاءها ، أما الروس فيرون تركيا بنظارات يونانية والنظارات في العادة لا تصلح للسياسة . وإني لأؤكد لك أن فتح تركيا يكلف ثلاثمائة ألف جندي قتلاً وموتاً بالأمراض ، وأنه تمضي بعد ذلك ثلاثون سنة على تلك البلدان ولا تكون لَمّت شعثها ولا عرفت المدنية تحت أي حكم كان » .

ثم سأل ميترنيخ تاليران عن كيفية تقسيم تركيا ؟ فقال له تاليران : المورة والجزر ومصر توافقنا ، وأنتم يلزم لكم وادي الدانوب وبلغاريا ،

---

١ - وزير خارجية نابليون .

٢ - لأن الهمّ الأول عند نابليون هو مقارعة بريطانيا التي تحتل الهند .

٣ - بدون مَيْل أو ظلم .

ولولا كون الروس في القريم لكانت القسطنطينية أولى بأن تكون لكم ولكنهم هم الآن أولى بها منكم » .

ثم بعد هذا الحديث مع تاليران بثلاثة أيام تلاقى ميترنيخ مع نابليون فقال له الامبراطور : «ما صرتم تحبون بقاء تركيا إلا من بعد أن صارت إلى حالة العدم التام » ثم صرح نابليون بأنه هو أيضاً يريد بقاء تركيا لولا عداوة الانكليز به ، فهو يريد مهاجمة الانكليز أينما كانوا .

ثم بدر من نابليون كلام يظهر منه أنه مقتنع باستيلاء الروس على استانبول ، وقال لميترنيخ : « متى صار الروس في استانبول لم يكن لكم غنى عن فرنسا لتساعدكم في وجه روسيا ، والذي أراه هو أن نكون معكم متفقين في مسألة تقسيم تركيا ، نعم لا ينبغي أن تكتب إلى حكومتك أن التقسيم تقرر ، لكن ينبغي أن تكتب أنه متى تقرر تكون أوستريا معنا لندافع عن مصالحنا ومصالها معاً ، فأنتم لكم ادعاءات صحيحة وجغرافية على وادي الطونة ، وهذه الإدعاءات هي التي لها دائماً القيمة الحقيقية » . فأجابه ميترنيخ : إذا كانت فرنسا ستترك صديقتها القديمة تركيا ، فنحن لا نقدر وحدنا أن نحميها » . ثم سأل ميترنيخ حكومته عن المشروع فجاءه الجواب بالسلب ، وأبلغه إلى الحكومة الفرنسية ، وكان معناه : « أنه لن يجد الامبراطور عملاً أخسر وأوجب للندم من الموافقة على هدم تركيا ، وأن تقسيم تركيا يمكن إذا كان انهيارها أمراً واقعاً ، ولكن الحالة ليست كذلك » . وأما تاليران فقال لميترنيخ أنه هو شخصياً ضد فكرة تقسيم تركيا ، ولكن الامبراطور

مصمم عليه ، فسأل ميترنيخ سفير روسيا في باريس عما يعلمه عن هذه القضية فأجابه الكونت تولستوي : نعم إن الكلام قد دار بين نابليون واسكندر على هذا التقسيم ، وأنه إن كان لا مفر من سقوط تركيا فينبغي الإتفاق على اقتسامها » .

وبالإجمال كان ميترنيخ ضد فكرة تقسيم تركيا ، إلا أنه كان يرى أنه إن حُمّ أجل هذه الدولة ينبغي أن تقوم مقامها دولة مسيحية صديقة لاوستريا .

المشروع السابع والستون

وهو المنسوب إلى (دوتريف) وتاريخه سنة ١٨٠٨ وكان دوتريف من أنصار سياسة تاليران ، وممن يرون الضرر كل الضرر في دخول نابليون في تقسيم السلطنة التركية ، وكتب للامبراطور تقريراً من (١٥) صفحة عن عواقب هذا التقسيم المشؤومة ، إلا أنه إذا كان هذا الأمر لا بد منه فهو يشير بقسمة شبه جزيرة البلقان إلى نصفين من الشمال إلى الجنوب ، فيكون النصف الشرقي مع القسطنطينية والدردنيل من نصيب روسيا ، ويكون النصف الغربي مقسماً بين فرنسا واوستريا ، ثم إن هذا المشروع يبلغ إلى انكلترا لعلها تجنح للسلم وتريح العالم .

وبعد هذا التقرير اقترح تاليران على دوتريف تقريراً ثانياً قبل ذهابه إلى (أرفور) في أثناء تلاقي الامبراطورين نابليون واسكندر ، فكتب دوتريف تقريراً ، قال فيه : إن تقسيم تركيا وغزو الهند آتيان لا محالة لكنه يجب تأخيرهما بقدر الإستطاعة .

غير أن الإتفاق بين الامبراطورين لم يتم ، وكان لتاليران اليد الطولى في ذلك لأنه كان يعمل دائماً لإبعاد فرنسا عن روسيا .

المشروع الثامن والستون

المنسوب إلى (بوز دي بورغو) وتاريخه ١٨٠٩ . وكان هذا الرجل من كورسيكا ، وقضى حياته عدواً لنابليون ، خدم روسيا وبروسيا وانكلترا واوستريا في جميع سياساتها العائدة لإسقاط بوانابرت ، وكان لهذا الرجل مشروع خاص به في تقسيم تركيا مآله أن روسيا يكون لها بسارابيا والفلاخ والبغدان وبلغاريا ، ويكون لفرنسا ألبانيا وتساليا والمورة وكريت ، ويكون للنمسا بوسنة وصربيا ، ويبقى لتركيا القسطنطينية مع الروملي ، وقد روى (دومنتون باك) بناء على تأكيد السير (روبرت أدير) سفير انكلترا في فيينا أن الامبراطور اسكندر الأول قد وافق على هذا المشروع ، وفي هذا القول نظر لمخالفته لكل ما سبق .

وفي غريب التكهنات أن (بوزو دي بورغو) هذا كتب في سنة ١٨٠٦ : « إن المشاة والمدفعية الفرنسيين سيقاتلون الروس جنباً إلى جنب مع خيالة الأتراك » ولقد وقع هذا في حرب القريم بعد هذا القول بنصف قرن[١] .

---

١ - كان هذا سنة ١٨٥٤ باتفاق بين الدولة العثمانية وفرنسا وانكلترا والنمسا ، على أن تأخذ النمسا البلاد التي تتركها روسيا ، ثم هاجموا الروس في شبه جزيرة القريم ، واحتلوا بعض المناطق ، ولكن لم يهاجموا الميناء سباستول .
انظر : تاريخ الدولة العلية / ٥٠٣ .

المشروع التاسع والستون

المنسوب إلى (دوفو) وتاريخه سنة ١٨٢٢ . وكان دوفو كاتباً إفرنسياً أشار بوجوب رئاسة فرنسا على عصبة أوربية تقف في وجه الروس ، وقال إنه يجب لذلك تعزيز السويد وإعادة دولة بولونيا ، أما تركيا فقال إنها يجب أن تتقسم بين دول أوربا واليونان فتكون سلطنة يونانية تحت حماية الروس فاصلة بين هؤلاء والنمساويين ، ويكون للنمسا صربيا وألبانيا .

المشروع السبعون

وصاحبه (دوكا بوديستريا‌س) وتاريخه سنة ١٨٢٨ وكان هذا الرجل يونانياً مولوداً في جزيرة كورفو ، خدم الروس عندما بسطوا حمايتهم على تلك الجزر ، وبقي يتقلب في المناصب السياسية عندهم إلى أن استقلت بلاد اليونان فانتخب رئيساً لحكومتها سنة ١٨٢٧ ، ولم تطل المدة حتى نقم عليه الأهالي ، ونشبت حرب داخلية ، وأخيراً فتك بعضهم بهذا الرئيس سنة ١٨٣١ .

ولما انعقد مؤتمر فيينا الدولي سنة ١٨١٥ قدمت روسيا إلى ذلك المؤتمر احتجاجاً على أعمال الأتراك القاسية في صربيا لكن المؤتمر لم يطل النظر في هذه المسألة ، وفي سنة ١٨٢١ توسطت روسيا لدى الباب العالي في أمر اليونان وطلبت رفع الجور عنهم ، ولما لم تقترن هذه الوساطة بنتيجة ، أعلنت روسيا الحرب على تركيا وظهرت عليها

وأجبرتها على عقد معاهدة أدرنة ، وكانت روسيا لا تطالب بنشر عقد السلطنة العثمانية كالعادة ، وكان ناظر خارجيتها يقول : « لا شيء أنفع لنا من مجاورة دولة ضعيفة كهذه » فكانت في هذه النوبة متفقة مع النمسا على عدم التقسيم .

وكان (كابوديستريا) وقتئذ رئيساً لحكومة اليونان فقدم إلى الامبراطور نقولا تقريراً في ٣١ مارس سنة ١٨٢٨ يقترح فيه التشكيلات الآتية :

١- مملكة للفلاخ والبغدان .

٢ - مملكة مملكة مؤلفة من صربيا وبلغاريا وبوسنة .

٣ - مملكة مركبة من تراقيا ومقدونيا والجزر التي أمامها في الأرخبيل .

٤ - مملكة مركبة من بلاد اليونان والجزر .

٥ - مملكة مشتملة على ابيروس وألبانيا .

٦ - القسطنطينية مدينة حرة .

وقد أمر الامبراطور نقولا بتأليف لجنة للبحث في اقتراحات الرئيس اليوناني ، فقررت هذه اللجنة أن استبقاء السلطنة العثمانية أولى وأقل ضرراً من القضاء عليها وغاية ما في الأمر أنه يجب عقد صلح شريف معها ، فانعقد الصلح في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ .

المشروع الواحد والسبعون

وصاحبه المطران (دوبرادت) وتاريخه ١٨٢٨ . وكان هذا المطران سفيراً لفرنسا في بولونيا ، وقد كتب سنة ١٨٢٨ كتاباً استجلب فيه نظر دول أوربا إلى الإكتراث للخطر السلافي ، وقال إن لأوربا سيدّين أحدهما بحري وهو انكلترا ، والآخر بري وهو روسيا ، وتذكر كلمة نابليون وهي : « من الآن إلى خمسين سنة تكون أوربا إما قوزاقا [1] أو جمهورية » .

قال دجوفارا : كل التكهنات لا تصح ، ولو تكهنها عبقري كبير مثل نابليون .

قلت : قد مضى على هذا الكلام نحو من (١٢٠) سنة ولم تتحول أوربا قوزاقاً : ولا صارت كلها جمهوريات ، بل صارت نفس روسيا جمهورية ، وأية جمهورية ، جمهورية شيوعية [2] .

أما (دوبرادت) فكان برنامجه الإستعانة لصد خطر السلاف باليونان لا بالترك وأن هؤلاء تكون لهم السيادة التي للترك في البلقان ، ونسي حضرة الأسقف رومانيا وصربيا وألبانيا . . . الخ كأن كل هذه لم تكن .

---

١ - أي تابعة لروسيا .

٢ - قلت : قد ذهبت الشيوعية ورجعت روسيا دولة تحاول إرضاء أوربا وأمريكا .

المشروع الثاني والسبعون

وصاحبه إفرنسي مجهول وتاريخه ١٨٢٨ ، ومحرر هذا البرنامج معتقد أنه لا مناص من زوال تركيا وأنه يخشى من استئثار روسيا بالقسطنطينية واستيلائها على المشرق ، فلذلك يقترح إعطاء النمسا بلاد البلغار والصرب وبوسنة وكرواسيا وألبانيا العليا ، على أن تعطي النمسا إلى ايطاليا الولايات التي أهلها طليان من بلاد النمسا ثم يقترح إعطاء عائلة سافواي بلاد لومبارديا والبندقية وبارم ومودين، وبمقابلة ذلك تتخلى مملكة سافواي عن سردادينا لفرنسا ، ثم يقترح تأسيس مملكة البوسفور مركبة من الآستانة والروملي ومقدونيا وشواطيء البوسفور وتكون هذه المملكة تحت تكافل جميع أوربا ، ويكون المرور بالبواغيز حراً وبدون دفع رسوم ، أما روسيا فيكون لها الفلاخ والبغدان فقط .

المشروع الثالث والسبعون

وصاحبه (دوبولينياك) وتاريخه ١٨٢٩ . وكان هذا من نُظّار دولة فرنسا ، تولى نظارة الخارجية ورئاسة الوزراء ، وفي أيامه ساد الإعتقاد بأن تركيا منهارة لا محالة ، ولذلك حرر ميترنيخ وزير النمسا برنامج تقسيم لتركيا قدمه إلى بطرسبرج وبرلين ، وخشية أن تتفق فرنسا مع

روسيا أخرج فرنسا بلا حصة ، فأسرع امبراطور روسيا باطلاع فرنسا على اقتراح النمسا وردَّ هذا الإقتراح بتاتاً .

وكان (نسيلرود) وزير خارجية روسيا أرسل سؤالاً باسم الامبراطور إلى جميع الدول وذلك سنة ١٨٢١ يسأل كلاً منها رأيها في كيفية تقسيم سلطنة آل عثمان ، وكان معنى ذلك إظهاره الرغبة في القضاء عليها . فأجابت فرنسا بطلب برنامج هذا التقسيم من روسيا في ضمن معاهدة ، فامتنع القيصر عن إعطاء ذلك ، ثم مات القيصر اسكندر وخلفه القيصر نقولا ، وكا (شاتوبريان) الكاتب الشهير مديراً لزمام الخارجية الفرنسية ، وكان هواه مع روسيا ، فأرسل إلى القيصر يقول له : « إذا شئت الذهاب إلى الآستانة فادخل مع الدول المسيحية في قسمة عادلة لتركية أوربا » . ولما كان (بولينياك) في وزارة فرنسا سنة ١٨٢٩ وبلغه اقتراح اوستريا تقسيم تركيا بدون إنصاف فرنسا عهد إلي (بوالوكونت) مدير الأمور السياسية في الخارجية بتحرير لائحة في هذا الموضوع ، فحرر هذا لأئحة مؤداها أنه ما من دولة ترضى باستيلاء الروس على الآستانة والبواغيز ، ولذلك يجب تأسيس دولة مسيحية في القسطنطينية ، وأن تُرضى روسيا بالفلاخ والبغدان وبأرمينيا وطرابزون ، وترضى بروسيا بالساكس وهولاندا ، وأن تكون المستعمرات الهولندية لانكلترا ، وأن يرسل ملك هولندا ملكاً على القسطنطينية ، وأن تخرج اوستريا من أسلاب تركيا ببوسنة وكرواسيا ودالماسيا والهرسك ، وأما فرنسا فتأخذ بلجيكا ولوكسمبورغ والألزاس واللورين وقسماً من هولندا .

وبعد أن تذاكر مجلس نظار فرنسا مدة ثمانية أيام في هذا المشروع صدّقه وأرسل بولينياك إلى روسيا يسألها رأيها فيه ، ولكن روسيا إذ ذاك كانت قد قررت الصلح مع تركيا ، فحبط هذا المشروع .

وقد كان لهذا المشروع أعظم نصيب من انتقاد المؤرخين حتى الفرنسيس منهم ، وقالوا : « لو لم توجد وثائقه في أوراق نظارة الخارجية لما كان الإنسان يصدق أن حكومة فرنسا تقترحه ، وقالوا : إنه لو بُوشر به لأدّى إلى حرب عامة » .

وكتب الكولونيل (روتيه) سنة ١٨٢٩ في (رحلة من تفليس إلى القسطنطينية) الجملة التالية : « لقد بينت مراراً الضلالات الشنيعة التي يبني عليها بعضهم برامج استئصال جميع المسلمين أو إجبارهم على الجلاء » .

المشروع الخامس والسبعون

وصاحبه (برونيكوفسكي) وتاريخه سنة ١٨٣٣ ، وقد كان هذا الرجل كاتباً ألمانياً من درسدن ، وخدم في جيش بروسيا ثم في جيش فرنسا عندما كان الفرنسيس في بولونيا ، وبرنامجه يقرب من برنامج (دوفو) المتقدم الذكر ، وهو مبني على تقسيم تركية أوربا ، وتجديد قوة بولونيا ووضعها حاجزاً حصيناً في وجه روسيا ، ولا يشير هذا الرجل بهدم السلطنة العثمانية في آسيا ، بل يقتصر على إيجاب تسليم ولايات الدانوب لاوستريا بمقابلة إعادة اوستريا بلاد غاليسيا لبولونيا ويقول أنه

يجب أن تعاض تركيا من ذلك بأخذ بسارابيا والقريم وبلاد القوقاس ، فكأن مقصوده كله هو توقيف تقدم روسيا .

المشروع السادس والسبعون

وهو المنسوب إلى الامبراطور الروسي نقولا الأول وتاريخه سنة ١٨٥٣ . كانت نظارة الخارجية الانكليزية نشرت وثائق في إحدى جلسات البرلمان سنة ١٨٥٤ يظهر منها أن القيصر الروسي نقولا اقترح على انكلترا إقتسام سلطنة آل عثمان ، لكن الوزراء كتموا هذا الإقتراح ولم يفشوه إلا في جواب على كتابة ظهرت في جريدة (دوصان بطرسبرج) . ففي ليلة سمر عند الأميره هيلانة الروسية في (٩) يناير ١٨٥٣ قال الامبراطور نقولا للسير هاملتون سيموز سفير انكلترا ما يلي « تأمل ، نحن بين أيدينا رجل مريض ، ومريض جداً ، ويكون بالفعل وبالاً عظيماً علينا إن خرج أمره من أيدينا » ثم استدعى الوزير (نسلرود) السفير المذكور إلى حضرة القيصر في (١٤) يناير فقال له أيضاً : « أنت لا تجهل المقاصد والمرامي التي لا تزال في روسيا من تهديد كاترينا ، وخلاصة الأمر أن تركيا هي على مقربة منا ، وإن فيها عدة ملايين من المسيحيين من وظيفتي السهر على مصالحهم[1] وبيدي معاهدات تعطيني هذا الحق[2] ونحن أمة تلقينا ديانتنا عن الشرق ، وعلينا

---

١ - هل هذا صحيح ؟ أم حيلة أتقنها الأوربيون للوصول لأغراضهم من التوسع واستعباد العالم .

٢ - هذه من أخطاء الدولة العثمانية .

واجبات لا يمكن التغابي عنها ، وحالة تركيا هي كما قلت لك من قبل ، وبرغم ما نريده من بقائها يجوز أن تموت بالرغم منا ، وتبقى عبئاً علينا وليس في استطاعتنا نشر الموتى ! ! أفلا يكون الأفضل بحقنا تفادياً من حرب أوربية أن نتفق من قبل على أمرها حتى لا نؤخذ على غرَّة ؟ وإني أقول لك بكل صراحة إننا إن استطعنا أنا وانكلترا أن نتفق في هذا الموضوع لم يهمنا الآخرون . وأنا لا أكتمك أنه إن كان في نية انكلترا الإستيلاء على الآستانة فلن أتحمل ذلك . لا أقول إن لكم هذه النية ولكني أقول إن صحت هذه النية فلن أكون راضياً ، وأنا نفسي أتعهد أيضاً بأن لا أحتلها مالكاً وأما بصورة مؤقتة على سبيل الإستيداع فقد أرضى ، وأما إذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها فقد يجوز أني أحتلها قولاً واحداً » . فالإنكليز لم يأمنوا للفرق الذي بين (التملك) و (الإستيداع) المؤقت ، ورفضوا مطالب القيصر ، وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨٥٣ تلاقى السفير سيمور مع القيصر عند القيصرة وقال له : «ليسمح لي جلالتك بالقول بأنه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على شرف الهلاك » فأخذ القيصر شيء من الحدة وأجابه « إذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لا تزال فيها عناصر حياة فتكون المعلومات التي لديها غير صحيحة ، وأنا أوكد لك أن المريض هو في حالة الإحتضار وأنه لا يجوز أن يموت ونحن غافلون بل يجب أن نتفق من قبل ، وأنا واثق بأننا نقدر أن نتفق ولست أكلفكم عقد معاهدة أو تحرير صك ، وإنما أطلب كلمة اتفاق عامة ، وهذا كاف فيما بين الرجال الأكياس » .

وقد كتب سيمور لحكومته بعد سماعه خطاب القيصر للمرة الثانية بهذا الإلحاح قائلاً : « لم يبق شك في أن الملك الذي يتكلم بهذا الإصرار كله على موت دولة مجاورة يكون مقصده لا انتظار موتها كما يزعم بل تعجيله ، ومرمى القيصر هو جرّ انكلترا واوستريا إلى اتفاق مع روسيا على تقسيم تركيا بدون أن تدخل في ذلك فرنسا » .

ثم دخل القيصر في التفاصيل مخاطباً سفير انكلترا : « تكون الفلاخ والبغدان مملكة مستقلة تحت حمايتي ، وتكون صربيا حكومة مثلها أيضاً ، وتكون بلغاريا أيضاً من هذا النمط ، إذ لا مانع يمنع من استقلالها[1] وأما مصر فإني لا أجهل أهميتها بالنسبة إلى انكلترا ، ولا أرى مانعاً من أنه إذا سقطت الدولة العثمانية ووقعت المقاسمة بيننا نخرج مصر في نصيب انكلترا ، وكذلك جزيرة كريت التي يتوافقكم » .

فأما انكلترا فمن أول الأمر رفضت تقسيم تركيا ، وأرسل اللورد (جون روسل) ناظر الخارجية جواباً في (٩) فبراير سنة ١٨٥٣ صريحاً في الرفض ، فأجابه (نسلرود) وزير روسيا بمذكرة تاريخها (٧) مارس يحاول فيها تسكين خاطر الحكومة الإنكليزية ويقول إن الأحاديث التي جرت بشأن تركيا إن هي إلا تبادل أفكار ، والإمبراطور لا يرى من الضرورة الكلام في هذه المسألة قبل حلول أوانها .

---

١ - دخلت كل هذه الدول تحت حماية الإتحاد السوفييتي بعد تحولها إلى الشيوعية وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، وبقيت كذلك حتى بدأ الإتحاد السوفييتي بالإنهيار ١٩٩٠ فانفصلت كدول مستقلة .

بيد أن الحكومة الإنكليزية التزمت في هذه السمـألة تمام الصراحة خشية سوء التفاهم فيما بعد ، فأرسلت إلى روسيا مذكرة واضحة تاريخها (٢٥) مارس سنة ١٨٥٣ تقول فيها : « إن حكومة الملكة علمت بمزيد السرور أن الإمبراطور يكترث أكثر من انكلترا نفسها لمنع نازلة تنزل بتركيا ، لأن حكومة الملكة مقتنعة بأنه على سياسة جلالة الإمبراطور يتوقف تعجيل أو تأجيل هذا الحادث الذي لجميع الدول الأوربية مصلحة في منع وقوعه . ثم إن انكلترا لا تريد تبسطاً في الأرض[1] ولا تقدر أن تدخل في اتفاق من هذا القبيل ولا أن تشترك في مفاوضات ومكاشفات يجب أن تبقى مكتومة عن بقية الدول ، وكل ما تراه حكومة الملكة هو أن تركيا لا تحتاج إلا إلى شيء من التسامح من جهة حلفائها وأن هؤلاء لا يتخذون بإزائها خطة تمس من كرامة السلطان أو استقلاله ، وأنه يجب أن تعامل بالرفق الذي هو حق الضعفاء على الأقوياء[2] ، سواء كان بين الدول أو بين الأشخاص .

وكانت جميع هذه المحاورات سرية ، ولم يكن متوقعاً أن تتعدى خارجيتي لندن وبطرسبرج لولا حادث طرأ ، وهذا الحادث هو أن الحكومة الروسية قرأت خطبة اللورد جون روسل التي ألقاها في مجلس العموم الإنكليزي سنة ١٨٥٤ فأجابت عليها بمقالة مآلها الإشارة إلى

---

١ - هل تريد أكثر من التبسط الذي كان لها ؟!

٢ - هكذا سياسة الإنكليز ، فانكلترا أصبحت شفوقة عطوفة لأنها لاتريد القسمة مع روسيا .

المفاوضات المار ذكرها والإدعاء بأن القيصر كان دائماً صريح اللهجة صادقاً بحق انكلترا . فعند ذلك اضطرت الحكومة الإنكليزية إلى نشر جميع المذكرات التي تبودلت بشأن تقسيم تركيا ، وكان لذلك دويٌ عظيم في العالم وقال المسيو (روسه) صاحب تاريخ حرب القريم : «إنه لم يوجد أمام العالم وأمام التاريخ ملك حمل عمداً واختياراً من التبعة ما حمله الإمبراطور نقولا» . وقد عقب ذلك حرب القريم وتحالف فرنسا وانكلترا تركيا على روسيا ، وانتهاء الحرب بصلح باريس سنة ١٨٥٦ ، وبعد هذه الحرب نالت رومانيا استقلالها الداخلي .

المشروع السابع والسبعون

وصاحبه (داندولو) وتاريخه سنة ١٨٥٣ ، وهذا المشروع يقرب في مشروع (كابوديسترياس) ومؤداه أنه بعد طرد الترك من أوربا تؤسس الدول العظام خمس ممالك في الشرق :

١ -بلاد اليونان مع سلانيك وجبل آنوس .

٢ - ابيروس والروملي إلى أدرنه إلى البحر الأسود .

٣ - الفلاخ والبغدان إلى حدود روسيا .

٤ - بوسنة وصربيا والجبل الأسود والهرسك .

٥ - جزائر كريت وقبرص وساموس ، والقسطنطينية مدينة حرة .

المشروع الثامن والسبعون

وصاحبه (دالبو نو) وتاريخه سنة ١٨٦٠ ، وكان (دالبونو) كاتباً فرنسياً له تآليف عن المشرق ، وكان يذهب إلى وجوب سد طريق البوسفور على روسيا حتى لا تصل إلى البحر المتوسط ، ولكنه كان يريد إرجاع المملكة البيزنطية الرومية بحجة أن الروم هم كانوا السبب في مجيء الترك وأنه يوجد بين الروم والسلاف عداوة شديدة ، ويرى أن تقسيم تركيا دونه مشكلات ومعضلات لا يمكن حلها ، والخلاصة أنه يوافق على جعل الآستانة مدينة أوربية تحت ملاحظة مجموع الدول التي ترسل كل منها إليها مندوباً وتكون حرية المرور بالبواغيز مطلقة للجميع ، وتؤسس دولة سلافية واحدة وتستولي روسيا على أرمينيا ، وتضاف تساليا ومقدونيا وألبانيا وكريت إلى مملكة اليونان . .

المشروع التاسع والسبعون

وصاحبه (بيتزيبيوس) وتاريخه أيضاً سنة ١٨٦٠ وهذا رجل يوناني كان أشد أصحاب هذه المشروعات التقسيمية تخيّلاً كما سترى :

١ - القسطنطينية مدينة حرة .

٢ - مملكة الفلاخ والبغدان .

٣ - مملكة السلاف : الصرب والبلغار والجبل الأسود وبوسنة والهرسك .

٤ - مملكة الأروام : تراقيا، مقدونيا ، أبيروس ، ألبانيا ، المورة . .

٥ - مملكة مصر .

٦ - مملكة تونس وطرابلس .

٧ - مملكة الأرمن .

٨ - مملكة قرمان والأكراد .

٩ - مملكة العراق .

١٠ - المملكة العبرانية أي فلسطين[١] .

---

١ - تأمل تشجيع النصارى لليهود ، وكيف يعتبرون فلسطين موطناً لهم في هذا الوقت المبكر ، بل إن هذا المشروع يدل على الخطة المبيتة لإقتطاع هذا الجزء المهم من أرض المسلمين .

المشروع الثمانون

وصاحبه راتوس وتاريخه أيضاً سنة ١٨٦٠ ، وهو يوناني حذا حذو سابقه في كثرة تقسيماته، وإنما امتاز عنه ببقية عقل وإنصاف حملته أن يترك شيئاً للأتراك العثمانيين . وبرنامجه هو هذا :

١ - الآستانة مدينة حرة .

٢ - المملكة التركية مشتملة على جميع البلدان التي جنوبي جبل طوروس مثل سورية وفلسطين وبلاد العرب ومصر وطرابلس وتونس ، وقال إن العاصمة يجب أن تكون دمشق أو القاهرة أو الإسكندرية .

٣ - مملكة اليونان .

٤ - مملكة الفلاخ والبغدان .

. . . الخ التقسيمات التي فيها شبه كبير بالمشروع السابق .

قلت : هذا البرنامج والذي قبله لا يستحقان الذكر إلا كأُطروفه .

المشروع الواحد والثمانون

وصاحبه (ستفانوفيتش) وليس له تاريخ ، وهو على نمط المشروعين السابقين ، تقسيمات خيالية ، وصاحبه يقترح حكومة حلفية يونانية سلافية ذات مجلس مركب من ثمانية أعضاء رئيسه نائب للقيصر الروسي ، ويقترح أن يذهب السلطان العثماني إلى بغداد ، وتعطى

سورية للأمير عبدالقادر الجزائري ، ومصر لفرنسا ، والقسطنطينية مدينة حرة وفيها مركز المجلس لجميع هذه الممالك . . .

المشروع الثاني والثمانون

وصاحبه الكومندور (نيغرا) وتاريخه سنة ١٨٦٦ وكان نيغرا هذا طليانياً ومبدأ ظهوره في خدمة (كافور) وزير ايطاليا المشهور[١] .

ثم صار سفيراً لإيطاليا في باريس ثم في بطرسبرغ ثم في فيينا ومات في (رابالو) سنة ١٩٠٧ ، وكانت الحكومة الروسية سنة ١٨٦٣ أجرت إحصاء في لولونيا تبعه من العسف والظلم ما حمل البولونيين على العصيان ، وتدخلت الدول في الأمر ، فاقترح نابليون الثالث عقد مؤتمر في باريس وأجابه إليه الإنكليز والبابا وايطاليا واسبانيا والسويد ، وأرسل نابليون الثالث إلى اوستريا يعرض عليها أخذ سيليزيا والتخلي عن غاليسيا التي كان يريد إعادتها إلى بولونيا وإحياء مملكة بولونيا من جديد . وكذلك عرض على اوستريا إمارتي الفلاخ والبغدان على شريطة أن تترك البندقية لايطاليا ، ويقال أن هذه الأفكار كانت أفكار (نيغرا) وكان هو الذي يروجها في باريس .

---

١ - كافور كاميليو ، صانع الوحدة الإيطالية في القرن التاسع عشر ، بدأ حياته السياسية عام ١٨٤٧ حين أصدر (الريسيور جمنتو) وتعني (البعث) ، تحالف مع فرنسا للضغط على النمسا التي كانت تحتل جزءاً من ايطاليا ، وفي عام ١٨٦١ أعلن البرلمان الإيطالي إقامة مملكة إيطالية موحدة . انظر : موسوع السياسة ٥/ ٤٨ .

المشروع الثالث والثمانون

المنسوب لغاريبالدي وتاريخه سنة ١٨٧٣ ، ويقال أن القائد الإيطالي الشهير غاريبالدي ترك بين أوراقه برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية ، وقد تكلم عن هذا البرنامج (أنريكوكروس) في رسالة نشرها تحت عنوان (وصية سياسية للجنرال غاريبالدي) .

مآل هذه الوصية اتحاد بين اللاتين والسلاف على الجرمانيين ، ففرنسا يجب أن تصل إلى الراين ، ايطاليا يجب أن تأخذ تريستي وكاتارو ، وبولونيا يجب أن تعيش وتشكيوسلوفاكيا ينبغي أن تكون جمهورية عاصمتها بزاغ ، ثم تكون جمهورية بلقانية سلافية عاصمتها الآستانة وتتوسع حدود رومانيا ، وتكون اليونان دولة قوية ، وترفع عن البحر المتوسط السلطة التي لانكلترا .

قلت : قد صح كثير من هذا البرنامج مثل أخذ ايطاليا لتريستي واستئناف استقلال بولونيا ، واستقلال بلاد التشيك ، وتوسع مملكتي رومانيا والبونان . . . كل هذا قد تم أثر الحرب العامة ، إلا أن اتصال فرنسا بالراين وإخراج الترك من القسطنطينية وخضد شوكة انكلترا في البحر المتوسط فلم يتم منها شيء .

المشروع الرابع والثمانون

وصاحبه الكونت (غريبي) وتاريخه ١٨٧٣ ، وكان غريبي هذا مستخدماً في سفارة اوستريا في روما وبعد ذلك صار سفيراً لايطاليا . ونشر رسالة عن المسألة الشرقية قال فيها : إن القسطنطينية يجب أن تكون للجميع مدينة حرة مستقلة ولا يتبعها إلا البوسفور .

المشروع الخامس والثمانون

وصاحبه مجهول ، وتاريخه ١٨٧٥ ، وقد ظهرت به نشرة أثناء الحرب الروسية التركية ، ومآلها أنه يحصل قريباً انقلابات في شرقي أوربا ، فالبوسنة والهرسك تصيران إلى أوستريا أو إلى الجبل الأسود والصرب[1] والفلاخ والبغدان والروملي وتراقيا تصير إلى روسيا ، وألبانيا ومقدونية وتساليا تضاف إلى مملكة اليونان ، والصرب والجبل الأسود يستقلان تماماً ، ومصر تصير مملكة .

---

١ - هذا ما تنفذه أوربا الآن ، بالسكوت عن جرائم الصرب حتى لا يكون هناك شيء اسمه البوسنة والهرسك .

المشروع السادس والثمانون

وصاحبه أيضاً مجهول وهو محرر بالألمانية وبدون تاريخ وصاحبه يريد دحر الأتراك إلى آسيا ، وتخليص صربيا ورومانيا ومصر وتونس وطرابلس منهم ، ويشير بجعل الدردنيل والبوسفور وقناة السويس ونهر الدانوب ممرات حرة للجميع وأن تأخذ روسيا بلغاريا وأرمينيا ، وتأخذ اوستريا قسماً من ألبانيا ، وتعتاض فرنسا وايطاليا من جهة أفريقية وتعتاض انكلترا من جهة آسيا الصغرى ، ولقد صح من هذا البرنامج أشياء مثل اعتياض فرنسا وإيطاليا من أفريقيا فأن فرنسا من بعد الجزائر استولت على تونس ثم على مراكش ، وايطاليا استولت على طرابلس وانكلترا بدلاً من آسيا الصغرى احتلت مصر وفلسطين .

المشروع السابع والثمانون

وصاحبه (رولين) وتاريخه ١٨٧٦ ، وهو منشور في رسالة عنوانها (الحل العملي لمسألة الشرق) نشرها صاحبها عند ثورة الصرب والرومانيين على تركيا . وهو يقترح طرد الترك إلى آسيا ، وأن تحتل أملاكهم في أوربا انكلترا واوستريا وبروسيا وروسيا ، وأن تحتل هذه الدول أيضاً القسطنطينية وأدرنه والروملي وكريت ، وأن يعطى الاستقلال لجميع أقسام تركية أوربا ويكون لها مجلس عام .

ومن تأمل في هذا البرنامج الذي انتحل له صاحبه اسم (الحل العملي) وجده أبعد الأشياء عن (الحل العملي) لأسباب لا تحصى ، لا تخفى عن السياسي الخبير .

المشروع الثامن والثمانون

وأصحابه آل نستا ، وتاريخه ١٨٧٦ ، وهم يشيرون بآراء لم نجدها إلا من باب التسكين المؤقت ، وذلك كإعطاء بوسنة إلى صربيا لكن مع بقاء سيادة الباب العالي عليهما ، وإعطاء الهرسك إلى الجبل الأسود ، وأن تجعل مجالس كبيرة للروملي وألبانيا وبلغاريا ، ينتخب السلطان رؤساءها بشرط أن يكونوا من المسيحيين . وآل نستا من الألمان .

المشروع التاسع والثمانون

وصاحبه (ماتياس بان) وتاريخه ١٨٨٥ ، وولد (بان) هذا في راغوزا[1] ومات في بلغراد سنة ١٩٠٣ .

ورأيه أن الإتفاق متعذر في شبه جزيرة البلقان إلا أنه يمكن أن يصار إلى التشكيلات الكنسية ، ففي القديم لم يكن إلا الكنيسة البيزنطية الرومانية ، ثم جعلوا كنيسة صربية وكنيسة بلغاريا ، ثم عند دخول الترك إلى القسطنطينية ألغوا بطريركتي البلغار والصرب ، فيجب أن تعادا كما بدأتا ، وأن تضاف الروملي إلى بلغاريا تحت سيادة الباب العالي ، وتعطى إلى الصرب (ودين) و (ساموكوف) وبعض أماكن من بلاد البلغار .

---

١ - تسمى اليوم دوبر فنيك ، تقع على شاطيء البحر الإدرياتيكي وكانت هذه المدينة من سنة ١٤٠٣ إلى ١٨٠٩ عاصمة لجمهورية ارستقراطية .

انظر : الدولة الدولة العلية / ١٣١ .

المشروع التسعون

وهو خبر جرائد وتاريخه سنة ١٨٩٦ ، نشرت جريدة الديلي نيوز الإنكليزية والبرليزتا الألمانية خبراً معناه أن روسيا متحفزة لاحتلال أرمينيا وحمل الدول على تقسيم تركيا ، وذلك على أن تأخذ روسيا القسطنطينية والولايات الشرقية إلى أن تنفذ من اسكندرونة ، وأن تأخذ فرنسا سورية وفلسطين ، وتأخذ انكلترا مصر وسواحل الخليج الفارسي والكويت ، وتستولي النمسا والمجر على بوسنة ومكدونية ، وايطاليا على طرابلس ، واليونان على كريت والجزر .

المشروع الواحد والتسعون

وصاحبه (فون سيكادوف) وتاريخه ١٨٩٨ ، وهو محرر بالألمانية ، وكان محرره من كتاب الصحف في فيينا ، وبعد أن ذكر ثورات البلقان وكريت وغيرها ، والحرب التركية اليونانية قال إن روسيا ستعود إلى تأريث نار الحرب الصليبية على الإسلام كما أن الألبانيين من مسيحيين ومسلمين يطلبون استقلالاً داخلياً تحت سيادة الباب العالي . وكما أن المسيحيين في مقدونية لايزالون يطالبون بإصلاحات لا يعمل منها الباب العالي شيئاً ، فلا مناص من النظر إلى هذه الحالة ، فهو يرى قسمة البلقان إلى شطرين شرقي وغربي بحسب استعداد الأرض ، وتتحد هذه الممالك البلقانية الغربية مع اوستريا والمجر اتحاداً اقتصادياً .

وأما في الشطر البلقاني الشرقي فتتحد بلغاريا مع رومانيا تحت تاج

الملك كارول ، وقال أنه إن لم تكن البلقان أوربية صارت أوربا كلها روسية ، فهذا هو الحل الوحيد للمسألة ، والطريقة الوحيدة لمنع روسيا من تكدير صفو السلام العالمي .

وبعد ظهور هذه النشرة بسنة ظهرت نشرة بإمضاء (غورلوف) فيها أنه يجب إعطاء ترانسلفانيا لرومانيا ، وجنوبي ألبانيا لليونان والجبل الأسود وبوسنة والهرسك للصرب ، وأن تستقل كل من المجر وبوهيميا .

قلت : وقد صح من هذا بعد الحرب العامة الأولى اعطاء ترانسلفانيا لرومانيا وجنوبي البانيا لليونان ، والجبل الأسود وبوسنة وهرسك للصرب ، واستقلال كل من المجر وبوهيميا (بلاد التشيك) .

المشروع الثاني والتسعون

وهو روماني وتاريخه ١٩٠٤ ، وصاحبه وزير سياسي يخفي اسمه وهو يشير باتحاد بلقاني تحت رئاسة ايطاليا ، وذلك لأن الدول البلقانية لايرضى بعضها رئاسة بعض ، وروسيا عظيمة جداً ومخوفة ، واوستريا قريبة ، وانكلترا وفرنسا بعيدتان ، فايطاليا لهذه الرئاسة أوفق من الجميع . وتتألف هذه الحكومات المتحدة من الولايات التركية القديمة ، ومن تركية آسيا نفسها ، وتنقسم ولايات تركيا إلى ثلاث مناطق : الأولى ألبانيا ومركزها أشقودرة ، والثانية مقدونية ومركزها سلافيك ، والثالثة تركية أوربا مع القسطنطينية وأدرنة ، وينصب في ألبانيا ومقدونيا حكام طليان ويتخذون طرز إدارة سويسرا ، وتكون

شرطة مسيحية محل الجيش . قلت : لعل موسوليني[1] فيما يحلم به من الفتوحات الرومانية يحلم بهذا أيضاً .

المشروع الثالث والتسعون

وهو قسمة القسطنطينية وتاريخه ١٩١٢ ، ولما كان أهم عقدة في قسمة أملاك تركيا هي الآستانة فقد فكر بعضهم في قسمة هذه المدينة نفسها ، وسبق إلى ذلك جريدة (الإندبندانس بلج) في (٧) يناير سنة ١٩١٢ عن رسالة من سلافيك يقول كاتبها إن الأتراك لا يقدرون أن يصلحوا هذه البلدة الطيبة كما يجب ، وأنه يلزم لهم لذلك عشرة مليارات على مدة (١٥) سنة فلا تجدهم يقدرون على إنفاق مبلغ كهذا. فأحسن طريقة هي جعلها دولية فيكون للألمان حيدر باشا[2] وقسم من الأراضي إلى جهة آسيا ، وللفرنسيس بك أوغلي وضواحيها ، وللإنكليز استانبول ، أما ايطاليا فقد أغارت على طرابلس الغرب فلم يبق.لها حق في حصته من عاصمة تركيا . وقد أبقى هذا الكاتب لآل عثمان حق رئاسة المجلس الدولي ، وأن تبقى لهم القصور التي في الآستانة فأما عاصمة تركيا الحقيقية فتصير برسا !! .

---

١ - مؤسس الحركة الفاشية في إيطاليا ، أسس حزبه بعد الحرب العالمية الأولى وفي عام ١٩٢٢ تمكن من تسلم رئاسة الوزراء ، اتبع سياسة استعمارية توسعية ، وحالف هتلر في الحرب العالمية الثانية ، ومنيت جيوشه بالهزائم في البلقان وأفريقيا ، انقلب عليه حزبه فاعتقله ثم أنقذه الألمان ، ولكنه عاد إلي إيطاليا فوقع بيد المقاومة الشعبية وأعدم على الفور عام ١٩٤٥ . انظر : موسوعة السياسة ٦/ ٤٧٠ .

٢ - حيدر باشا و (بك أوغلي) و (غلطة) أحياء من العاصمة استامبول .

المشروع الرابع والتسعون

وصاحبه المسيو (رالف دونريكت) وهو يشير بإعطاء القسطنطينية للبابا ، ويكون مركزه بها ، قال وهذه كانت فكرة قسطنطين الكبير فتأمل .

المشروعان الخامس والتسعون والسادس والتسعون

وهما معاهدتا باريس وبرلين الأولى سنة ١٨٥٦ والثانية ١٨٧٨ .

قال دجوفارا : هذه كانت في مدة ستة قرون مساعي المسيحيين ومحاولاتهم لمحو السلطنة العثمانية التي كانت من أعظم الممالك التي عرفها تاريخ البشرية ، وإن لم يكن قد تنفذ برنامج واحد من هذه البرامج الكثيره بحذافيره ، فمازال تكرار هذه المساعي وتداول هذه الأفكار في كل أوربا خلفاً عن سلف يعمل عمله تدريجاً وينقض من بناء السلطنة التركية إلى أن انهارت جوانبها .

وقال : بعد واقعة ليبانت (١٥٧١) بدأت الدولة العثمانية تتقهقر ، وقد أخذت أملاكها في أفريقية كمصر وطرابلس والجزائر وتونس تنفصل عنها ولم يبق لها عليها إلا سيادة اسمية ، ثم إن الحروب الكثيرة التي أصلتها إياها كل من روسيا واوستريا نزعت منها المجر (١٦٩٩) وبانات وطمشوار (١٧١٨) وقسماً من الصرب ، وقسماً من الفلاخ

والقريم (١٧٧٤) وبوكفين (١٧٧٥) ثم خسر الباب العالي جزر كورفو وأخواتها (١٧٩٧) وكرجستان (١٧٩٩) وبسارابيا إلى حد نهر البروت (١٨١٢) وبلاد اليونان (١٨٢٩) وأرمينيا القوقاسية ، ثم خسر المغرب (١٨٣١) وسنة ١٨٤١ استقلت مصر استقلالاً داخلياً أيضاً .

وبمعاهدة باريس ١٨٥٦ نالت الإستقلال الداخلي رومانيا وصربيا ، وتقررت حرية الملاحة في البحر الأسود والمرور بالدانوب ، ثم أخذ الإنهيار يتتابع ولا سيما بعد حرب سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ مع روسيا ، إذ وصل الروس إلى أدرنة وأجبروا الباب العالي على قبول شروطهم في (أياستفانو) ولكن أوربا لم تصدق هذه المعاهدة وتبدلت بها معاهدة برلين (٣١ يوليو ١٨٧٨) فتقرر الإستقلال التام لرومانيا وصربيا والجبل الأسود ، وصارت بلغاريا إمارة تؤدي إلى الباب العالي الجزية ، انفصلت ولاية اسمها الروملي الشرقي لكن تحت سيادة الباب العالي ، ثم استلحقها البلغار (١٨٨٥) واحتلت اوستريا بوسنة والهرسك مدة مديدة ثم أعلنت (١٩٠٨) استلحاقها ، ونزل الباب العالي في آسية لروسيا عن باطوم وقارص وأردهان ، وتخلى عن قبرص لانكلترا .

وفي سنة ١٨٨٢ احتل الانكليز مصر ، وقبل ذلك بسنتين احتلت فرنسا تونس ، وسنة ١٨٩٦ نالت كريت استقلالها ، وبقيت برغم كل هذا بلاد البلقان غير ساكنة ، والنار تضطرم تحت الرماد إلى ان سقط السلطان عبدالحميد (٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨) وتولت عصبة تركيا

الفتاة[1] فاستخلقت اوستريا بوسنة والهرسك ، ثم شنت ايطاليا الغارة على طرابلس الغرب وهذه الغارة هي المشروع السابع والتسعون من تقسيم سلطنة آل عثمان ، واستمرت تركيا في الحرب مع ايطاليا نحواً من سنة وانعقد بينهما صلح لوزان في (١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢) وخسرت تركيا بقية ما كان بقي لها في أفريقية .

قلت : وأعلن كل من ملك اليونان وملك البلغار منشوراً على العالم يذكر فيه الأسباب التي دعت المسيحيين أن يحملوا السلاح لمقاتلة الترك ويشير إلى مصارعة الصليب للهلال وغير ذلك من العبارات التي كان ملوك المسيحيين يستعملونها في الحروب الصليبية ، وتبعهم في ذلك ملك الصرب ، وسرد تاريخ الجلاد بين الترك والصربيين ، وزعم أن تركيا كانت لا تعترف بديانة الصرب ، وتعارضهم في حريتهم الدينية ، وتجبرهم على الإسلام[2] وأمثال ذلك من العبارات المهيجة .

وبينما مناشير الملوك الثلاثة المذكورين ملأى بذكر العداوة بين

---

١ - جمعية مناهضة للدولة العثمانية تأسست عام ١٨٦٠ وتألفت من الأتراك الذين يريدون (أوربة) تركيا ونقلها إلى حالة التغريب المحض ، شكلت لها خلايا في العاصمة وفي سلانيك حيث دخلها كثير من يهود الدونمة واستمالت كثير من الضباط ، حيث استطاعت الإطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٨ ، ومن زعمائهم المشهورين : طلعت وأنور وجمال وجاويد . . . وقد دخلوا في الحرب الأولى مع ألمانيا فوقعت الهزيمة عليهم ، وهرب هؤلاء الضباط إلى ألمانيا لاجئين .

٢ - طبعاً كل هذا كذب وافتراء ، وقد قلنا أكثر من مرة أن الأمر بالعكس تماماً ، فإن الدولة العثمانية أعطت النصارى أكثر من حقوقهم .

النصرانية وتركيا ، والمصارعة بين الصليب والهلال ، وجميع الكلمات المثيرة للعواطف ، إذ صدر منشور السلطان محمد الخامس ليس فيه كلمة واحدة مهيجة ولا جارحة ، بل كله حث على حفظ ذمار السلطنة وتوطيد نفوذ الحكومة مع الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الأعداء والتحرج عن سفك الدماء . . . وقد نقل المؤلف دجوفارا المناشير الأربعة بنصوصها ، ثم ذكر خلاصة الحوادث :

في ٨ أكتوبر ١٩١٢ إعلان ملك الجبل الأسود الحرب على تركيا .

في ١٨ أكتوبر ١٩١٢ إعلان ملك البلغار وملك الصرب واليونان الحرب واحتلال البلغار جسر مصطفى باشا .

في ٢٦ أكتوبر ١٩١٢ استيلاء الصرب على اسكوب .

في ٨ نوفمبر ١٩١٢ سقوط سلانيك .

في ١٦ ديمسبر ١٩١٢ احتجاج مندوبي الصلح في لندن .

في ٦ يناير ١٩١٣ توقف مفاوضات الصلح .

في ٣٠ يناير ١٩١٣ رفض تركيا التخلي من أردنة .

في ١ مارس ١٩١٣ قبول الترك وساطة الدول .

في ٢٦ مارس ١٩١٣ تسليم أردنه .

في ٣٠ أبريل ١٩١٣ عقد مواد الصلح الأساسية[١] .

---

١ - في هذه المعاهدة تجردت الدولة العثمانية من جميع أراضيها الأوربية باستثناء شريط صغير حول استانبول . وكل هذا تم بعد أن أضعفت جمعية تركيا الفتاة والإتحاد والترقي الدولة العثمانية بانقلابهم على السلطان عبدالحميد .

ولكن هذه المعاهدة بقيت بدون إمضاء ، لأن الدول البلقانية تحاربت بعضها مع بعض بسبب الإختلاف فيما بينها على تقاسم البلاد وهي حرب لسنا الآن في صددها ، فعادت تركيا واستفادت من هذه الفرصة وسيرت جيشاً استرجع أردنة ، فبقيت لها في أوربا القسطنطينية وأدرنة وما بينهما ، أي بقي لتركيا في أوربا زهاء مليون ونصف من السكان بعد أن كان لها أملاك يسكنها اليوم زهاء (٤٠) مليون نسمة في أوربا خلا آسيا وأفريقية .

بقي علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف المسيو دجوفارا الروماني مؤثرين منقولنا على مقولنا ، لأنها شهادة من رجل أجنبي عنا بل رجل سياسي مسيحي بلقاني كانت الأمة التي ينتمي إليها من جملة الأمم التي استقلت عن الدولة العثمانية .

الخلاصة

قال دجوفارا : « مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية ، وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينه مما يناهز مئة . إلا أن الحماسة الدينية التي كانت تلتهب في القديم فترت بمرور الأعصر ، فلم يبق عند هذه الشعوب تلك الحرارة التي كانت تجمعها على غير المسيحيين[1] وصارت المصالح الإقتصادية والمناظرات بين الملوك تفرق بين أولئك الذين كان الصليب يؤلف بينهم من قبل ، فلما جاء الوقت الذي صاروا فيه يتكلمون عن (الرجل المريض) تنبهت المنافسات وثارت المنازعات ، وتحقق أن احتلالاً عسكرياً لتركيا سيجرّ بلا نزاع إلى حرب عامة . ولا نعني بهذا أن كل فكر في تقسيم السلطنة العثمانية انقضى ، أو أن كل أمل في الإتفاق على أسلابها قد انقطع ، فمنذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية لم تزل الناس تتقّول على سقوط سلطنة آل عثمان ، وفي سنة ١٧٨٤ كتب (دييز) سفير بروسيا في الآستانة أن الروس لا يلبثون أن يأخذوا تركيا في مدة عشر سنوات ، وكذلك تنبأ نابليون بمثل هذا ولم تصدق بنوءته .

وكانت الدول العظام لا تفكر أن هذه الأمم التي تتألف منها السلطنة

---

١ - مازال الحقد الصليبي وإن تداخل مع التوسع الإستعماري والهيمنة الإقتصادية .

العثمانية يمكنها أن تدير أنفسها بأنفسها[١] بل كان عندها أن هذه الشعوب لم توجد إلا لتكون تحت حكم الأجنبي ، وبقي هذا الفكر عند الدول الطامحة العظيمة إلى أيامنا هذه ، فإذا قلت لبعض رجال السياسة : إن هذه شعوب يمكنها أن تتحرر وتستقل بأنفسها هزأوا بك ، ولم أجد سوى رجل واحد نظر إلى بعيد وهو المسيو كونستان سفير فرنسا سابقاً في الآستانة فقد كان يقول : « إن المستقبل في الشرق إنما هو للشعوب الصغيرة » .

على أن السلطنة العثمانية إن لم تكن سقطت كلها دفعة واحد فقد تساقطت قطعة بعد قطعة في مدة هذه الأعصر الطوال التي كانت أوربا تناصبها فيها العداء ، فماذا كان السبب في هذا السقوط ؟ .

الجواب إن الأسباب كثيرة : منها السبب الذي نشأ عنه سقوط الممالك العظمى في العالم ، وهو سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة ، واختلاف الأمم الخاضعة واستحالة إذابتها في بوتقة واحدة ، وصعوبة إعطائها كلها فكرة قومية متحدة[٢] ، ثم فساد الإدارة وإرتخاء

---

١ - ولذلك اخترعوا قصة الإنتداب والوصاية على الشعوب الإسلامية بحجة أنها شعوب لا تستطيع أن تدير نفسها . ولكن الحكام الذين تسلطوا على هذه الشعوب بعد رحيل الأوربيين أذاقوها الويلات مما جعل كاتباً كينياً يدعو إلى رجوع الأوربي ليحكم القارة الإفريقية ؟!! .

٢ - إن الدولة الإسلامية تختلف عن باقي الدول الكبار ، بأن جامعتها هو الدين الذي يضخع الجميع له ، والذي ينهى عن العصبية القومية ولكن مشكلة الدولة العثمانية أن عنصر النصارى في أوربا عنصر كبير .

النظام ، وتردي القوة العسكرية . وأضف إلى ذلك اختلاف الأديان بين سكان هذه السلطنة ، فالإسلام لا يأتلف مع النصرانية ، لا سيما أنه لا يكتفي بأن يكون ديناً روحياً يعزي الأنفس ، بل هو مسيطر على الإدارة ويتدخل في أمور الحكومة .

وقد كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع سماوي[١] ولم يكن القرآن مانعاً لا في العلوم ولا في المعارف ولا من الصناعات ، ولو كان ذلك لما كانت المدنية العربية الباهرة ممكنة .

وكذلك لولا التسامح الديني العظيم عند الأتراك لكان تساكن المسيحيين مع المسلمين متعذراً ، ولكن الدولة العثمانية أعطت المسيحيين حريتهم الدينية التامة ، وخولتهم أيضاً الحرية المدرسية ومما يجب أن نعترف به أن هذه الحرية الدينية التي منحتها الدولة العثمانية لرعاياها المسيحيين مع حرية التعليم هي التي كفلت نموهم وترقيهم ، وجعلتهم يسيرون في طريق الإستقلال المطلق[٢] ولا جدال في أن

---

١ - هذا الكلام فيه شيء من الصواب ، ولكن الدولة كما ذكرنا كانت في بداية أمرها تهتم بالإدارة والعلم ، ولم يكن هذا كافياً .

٢ - يقول الشيخ رشيد رضا : ومن عجيب تحامل الأوربيين وأنصارهم من العثمانيين نسبة الدولة العلية إلى إهانة النصارى وعدم مساواتهم بالمسلمين ، ونذكر الآن مسألة الصحافة ، فقد رقّت الدولة أصحابها من النصارى أكثر مما رقّت أصحابها من المسلمين ، ففي مصر من أولئك من صاروا باشاوات الدولة ، وهذا نجيب بك ملحمة رقته الدولة بسبب ما كان يكتب في جريدة البصيرة إلى أهم مركز سياسي في بلادها حيث جعلته مندوباً سامياً في البلغار ، وأعظم من هذا في معناه أنه بعد=

النصرانية عروة دينية وثيقة كانت جامعة للأمم البلقانية ، فصارت هذه الأمم تتأهب للمقاومة ، وما كان من الأمور يقبل العذر فيه من مملكة مختلفة الأجناس مثل اوستر - هنكاريا أو سويسرا كانوا لا يقبلون العذر فيه إذا صدر في مملكة غير مسيحية ، على أنه قد جرت حوادث كثيرة كان فيها النصارى على النصارى أغلظ من المسلمين على النصارى وذلك كما جرى من البنادقة على أهل أثينا ، ولكن الغيظ في أواسط العائلات سريع الزوال ، فالعداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين ، برغم تسامح المسلمين في الدين ، والحرية الدينية التي كان يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية ، وقد قال المؤرخان : (لافيس) و (رامبو) : إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الترك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، وكانت حكومة الأتراك لاتعارض أحداً في دينه .

إلا أن العداوة الدينية للإسلام لم تكن لُتُنْسى ، فكل ما كان يفعله المسيحيون من الجور والطغيان كان منسّياً ، وأيّ شيء وقع من الترك على النصارى كان يقابل بالصيحة : يا للإنتقام .

وهناك سبب آخر لعدم الإئتلاف وهو اختلاف السلائل فالترك

= صدور جريدتنا المنار الإسلامية ، أراد بعض كهنة النصارى إصدار جريدة دينية بهذا الاسم ، فأنهى رشيد بك والي بيروت إلى الدولة العلية بإصدار المنار المسيحي ، فصدرت الإرادة حسب الطلب ، وأنعم بالوسام العثماني الرابع صاحب جريدة المنار المسيحية . . انظر : المنار ٢ / ١٥٨ .

طورانيون في السلالة ومثلهم البلغار ، أما الروم والصرب والرمانيون فآريّون ، ثم إن هناك اختلافاً في المشارب والأوضاع فالتركي جواد يكره ادخار المال والشح ، والقرآن يمنع المسلم من الدين بالربا[١] ولذلك كان من الصعب أن يثبت التركي في مجتمع مبني على المضاربات وتثمير رؤوس الأموال ، ولا جرم في أن هذه مبادىء شريفة في ذاتها ، ولكن الحكومة التي تأخذ بها لا تلبث أن تجد خزانتها فارغة[٢] وإن كان لا يسع الإنسان إلا الإعجاب بمنازع عالية كهذه ، ثم إن احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة كانا من مزايا العثمانيين ، يدور عليهما التاريخ العثماني كله ، فإن كان الشعب التركي الآن قد غلب ، فإنه فقد كل شيء إلا الشرف[٣] »ا . هـ كلام دجوفارا .

ثم ذكر دجوفارا ملخص تاريخ الحركات الوطنية البلقانية وخروج الروملي من أيدي الترك ، وانتهاء هذا الخلاف الذي استمر هذه القرون

---

١ - ويذكر دجوفارا الآيات القرآنية التي تنهى عن الربا وتحث على إمهال المديون إلى وقت اليسر ، وتنهى عن البخل (ش) .

٢ - لا شك أن المسلمين إذا قصروا في تثمير الأموال فهذا يعود عليهم بالنقص والضعف أمام الدول ، أما قضية الربا فغير صحيح كلام المؤلف لأنه من الممكن لدولة لا تتعامل بالربا أن تعيش إذا كان اقتصادها قوياً .

٣ - أي أن الوفاء بالمعاهدات هو من أسباب ضعف الدولة العثمانية لأن أوربا لاتفي باتفاقياتها أو شروطها ، والمسلم أو الدولة الإسلامية لا تستطيع أن تتفلت من هذه المباديء الإسلامية ولكنها تستطيع أن تكون حذرة من مكر الأعداء ، وتقابل المكر بالمكر .

المتطاولة بين الترك المسلمين والبلقانيين المسيحيين ، وقال في الختام إنه لايزال في أيدي الترك القسطنطينية وأدرنة والبواغيز ، وبهذا السبب لهم دور عظيم ، ويبعد كثيراً اتفاق الدول العظام على إخراج هذه الأماكن من أيديهم .

قلت : قد تحقق قول هذا السياسي الروماني بعد الحرب العامة ، فقد جدّ بعد الحرب العامة مشروعا تقسيم لتركيا هما أهم من كل ما ذكره من مشروعات التقسيم ، أولهما معاهدة (سيفر) التي أرادت دول الحلفاء أن تجبر تركيا على إمضائها ، والتي نزعت من يد تركيا جميع البلدان العربية ، وجعلت بلاد الأناضول التركيه مناطق مقسمة بين دول الحلفاء وجعلت القسطنطينية نفسها – وإن كان سيبقى فيها السلطان مقيماً – تحت حكم لجنة دولية ، فهذه المعاهده لو نفذت لكانت تركت تركيا أثراً بعد عين . ولكن الأتراك ثاروا عليها واعتصموا بالأناضول ، وجعلوا مركزهم أنقره ، ورماهم الحلفاء بجيش اليونان فقاوموه واحتل اليونان قسماً من بلاد الأناضول إلا أن الأتراك نهضوا ونشطوا واستماتوا في سبيل استقلالهم فما زالوا حتى دحروا اليونان وأخرجوهم ومزقوا شملهم ، فاضطرت الدول أن تعود لمصالحة تركيا على غير قاعدة معاهدة (سيفر) المنبوذة[١] ، وعقدت مع تركيا معاهدة لوزان التي

---

١ – لا شك أن الأتراك المسلمين قوم شجعان ، ومشهورون بقوة الشكيمة ولكن الإنتصار على اليونان وإخراجها من الأناضول ، استغله مصطفى كمال القائد الذي كان يضمر كره الإسلام والمسلمين ، استغل هذا وألغى الخلافة الإسلامية نهائياً وألغى =

أبقت لتركيا الأناضول والقسطنطينية وأدرنة ، وأخرجت من يدها البلاد العربية كلها وكل ما كان لها في أفريقية وجزائر بحر الأرخبيل إلا الجزر المصاقبة للدردنيل . . .

ولقد كان العامل الأعظم في بقاء تركيا ، وعدم إخراج الترك من الآستانة هذه المرة أيضاً هو اختلاف الدول وخوفهن من أن تحتل انكلترا الآستانة ولا تخرج منها ، فآثروا أن تبقى تركيا في الوجود[١] وأن تبقى لها القسطنطينية ، وألفوا لجنة للبواغيز دولية ومنعوا تحصينها ، وهكذا ثبت أن هذا الموقع العظيم الذي هو استانبول لايزال بأهميته الجغرافية والسياسية والعسكرية هو السبب الأكبر في وجود تركيا .

ولنعد الآن إلى ذكر التسامح والتعصب ، وأيّ الفريقين أحق بأن يقال أنه متسامح ، الإسلام أم أوربا ؟ مما كان هو أصل البحث الذي ساقنا إلى تلخيص (مئة مشروع لتقسيم تركيا) فنقول : قد شهد هذا الرجل الضليع في علم السياسة المطلع على تاريخها بما يندر أن يطلع عليه عالم آخر أن أشد التبعة في هذه العداوة المستمرة بين الإسلام

اللغة العربية والحروف العربية وألغى كل شيء يمت للإسلام بصلة ، وكانت انكلترا ممن سكت عن انتصاره على اليونان خوفاً من إضعاف تركيا أمام الدولة الروسية الناشئة (دولة الشيوعيين) بعد الحرب العالمية الأولى ، ولما يعلمون من أنه سيجعل من تريكا دولة علمانية محضة .

١ - كانت انكلترا وفرنسا من أقوى الدول بعد الحرب الأولى ولكن كما ذكرت كان الخوف من روسيا .

والنصرانية إنما هي واقعة على المسيحيين ، قال هذا في مقدمة كتابه هذا المصدر بمقدمة من قلم (لويس رنول) من مشاهير أساتيذ الحقوق والعلوم السياسية . ومن طالع تاريخ الإستعمار الأوربي ، وتاريخ الإستيلاء الأوربي سواء كان في القديم أو في الحديث علم أن الأوربي بمقتضى فطرته لا يطيق وجود غيره ، ولا يرى إذا ساد حقاً إلا لنفسه ، فهو لا يقف بمجرد الوجدان كما يقف المسلم عن استصفاء حقوق من يستولي على بلاده ، بل إذا وقف لا يقف إلا بسبب قوة تصادمه ، أو بسبب موازنة يترجح بها عنده نفع الوقوف على ضرره ، فأما إذا وجد نفسه قادراً أن يفعل ولا يَلْحق به ضرر ، فإنه قلّما يتوقف عن هضم حقوق الذين تغلب عليهم إلا نادراً ، ولقد تراه من شدة أثرته وطمعه واعتقاده أن له أن يحصر كل شيء في نفسه ، إن سمح لرعاياه بأن يمارسوا شعائر دينهم مثلاً عدَّ ذلك منةً كبرى ، وأقامها حجة على تسامحه الديني ، فقد قرأنا كثيراً من الخطب والمقالات لرجال الفرنسيس يمنّون فيها على مسلمي المغرب بأنهم لم يعارضوهم في دينهم ، وكأنهم يرون ذلك في الذروة العليا من العدل والنزاهة وكمال المدنيّة [١] .

---

١ - انتهى القسم الذي علقنا عليه من كلام طويل لشكيب أرسلان عن التعصب النصراني الأوروبي أم التعصب الإسلامي ناقلاً وملخصاً كتاب (مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية) .

والعرض مستمر

« لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردي »

« يمكن للصليب أن يتحد في كل وقت ، لكن الهلال دائماً بمفرده » .

السلطان عبد الحميد

كان السلطان عبدالحميد على وعي بالمخاطر الخارجية التي تهدد الدولة العثمانية وعلى علم بأطماع أوربا وبريطانيا خاصة ، وكان يتوقع الخطر الداهم من مستغربة الأتراك ، وقد حاول بكل جهده تجنب الكارثة داعياً إلى اتحاد العالم الإسلامي في وجه أوربا ، ولكن الخونة من أعضاء الإتحاد والترقي ومن يهود الدونمة أطاحوا به عام ١٩٠٨ ، ثم حولوا تركيا إلى دولة علمانية ذليلة لأوربا .

استمرت المشاريع بعد سقوط الخلافة الإسلامية ، واستمر التفتيت والتقسيم ، واخترع الحاوي الأوربي عصبة الأمم وهيئة الأمم التي هي: «كالعروض بحراً بلا ماء ، ما وجدت إلا لتلبس الإعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا يطيعها إلا عاجز ضعيف »[١] وعن طريق عصبة الأمم جاءت بريطانيا وفرنسا بالإنتداب والوصاية ، وهي أسماء دبلوماسية للإحتلال والإستعمار .

---

١ - مقدمة حاضر العالم الإسلامي .

استمرت المشاريع ، واستمر ضعف المسلمين وتفرقهم وقوة واتحاد الدول الأوربية ، ونفذت اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم بلاد الشام ودعموا اليهود لاحتلال فلسطين بوعد من (بلفور) وزير خارجية بريطانيا ، وشجعوا الأقليات الدينية والعصبيات القومية الثائرة على الدولة كما شجعوا الإنقلابات العسكرية ، وأخيراً مارسوا السياسات القديمة في الحصارات الإقتصادية .

ولكن هل نضع اللوم كله على أوربا ؟ كلا ، فالخطر الذي ضعضع الدولة العثمانية ، والذي قَوّض جنبات المسلمين في كل مكان إنما جاء من الداخل ، ورغم المؤامرات ، ورغم نقض العهود والمواثيق كان بالإمكان التصدي لها لو أن الإصلاح جاء من الداخل .

جاء الخطر من العلمانيين المغرورين بثقافة أوربا وطريقة عيشها ، ومن ملاحدة الترك الذين طلبوا مساعدة أوربا لهم لتقويض الدولة العثمانية ، وقلدهم في ذلك ملاحدة العرب الذين أسسوا الجمعيات القومية ، وساعدوا بريطانيا في إنهاء الدولة العثمانية ، فكانت نتيجة خيبتهم وفشلهم : أوطان ممزقة لا هوية لها . وزعماء أقزام لا دنيا أقاموا ولا دين أبقوا ، ولذلك قال شاعرهم رضا توفيق نادماً على ما فعلوه مخاطباً السلطان عبدالحميد :

عندما يذكر التاريخ اسمك

يكون الحق في جانبيك ومعك أيها السلطان العظيم

كنا نحن الذين افترينا - دون حياء - على أعظم سياسي العصر

قلنا إن السلطان ظالم وإن السلطان مجنون

قلنا لا بد من الثورة على السلطان

وصدّقنا كل ما قاله لنا الشيطان

وعملنا على إيقاظ الفتنة

لم تكن أنت المجنون ، بل نحن ، ولم نكن ندري

علقنا القلادة على فتيل واه

لم نكن مجانين فحسب ، بل كنا قد عدمنا الأخلاق(١)

---

١ - د. محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة / ٣٣ .

جاء الخطر من داخل السلطنة ، من يهود الدونمة الذين كانوا أعضاء في جمعية الإتحاد والترقي ، وتمكنوا من استمالة كثير من الضباط إليهم ، وخدعوا الناس بالشعارات الطنانة ، ثم أدخلوا الدولة في حرب خاسرة فخسروا أنفسهم وخرجوا إلى أوربا ، والعجيب أن فئة العلمانيين في بقية بلدان العالم الإسلامي يفكرون بالطريقة نفسها ، ويريدون تخريب البلاد كما خرب تركيا مصطفى كمال وزمرته ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [الحج / ٤٦]

جاء الخطر من فئة النصارى الذين عاشوا في كنف الدولة ولم تزعجهم بشيء ، بل جاءتهم الإمتيازات نتيجة الضغوط الدولية على العاصمة استامبول ، لقد أنكروا النعمة التي حفظتهم طوال هذه المدة ، فراحوا يتآمرون باسم القومية العربية ، أنشأوا الصحف والمجلات في بيروت والقاهرة ، وجعلوها حرباً على السلطان عبدالحميد وعلى الدولة العثمانية .

وجاء الخطر من العرب الذين حرضتهم انكلترا على الثورة ضد العثمانيين وفعل الذهب الإنكليزي فعله في زعماء البدو والضباط العرب الذين درسوا في الآستانة ثم تنكروا لها .

وقبل كل هذا فإن ضعف الدولة كان واضحاً ، فالإصلاحات التي بدأها أجداد عبدالحميد لم تكن كافية ، عدا عن أن بعضها كان تقليداً محضاً لأوربا في أشياء لا تناسب المسلمين وثقافتهم ، لقد استوردت قوانين أجنبية ، وكان الجهل فاشياً ، والفساد الإداري على أشده .

لقد رجعت في هذه الأيام نغمة الصراع بين الإسلام والغرب ، وخصصت مجلة بريطانية عدداً خاصاً عن هذا الموضوع[١] ، وكانت صورة الغلاف فيها الهلال والصليب ، وتكلمت المجلة عن حتمية الصراع بين الغرب والإسلام ولكنها استدركت وقالت : يمكن أن يتعايش الغرب مع الإسلام بشرط أن يقبل المسلمون بالنظام الديمقراطي الغربي ، وبنظام الإقتصاد الحر والربا ، وبنظرة الغربي إلى المرأة ، وهكذا كان رأي المجلة ، ولا ندري ماذا ترك للمسلمين لممارسة الإسلام في شؤون الحياة .

لقد جعلت أوربا من نفسها القيّم والحكم على العالم ، وأصاب شررها المسلمين أكثر من غيرهم ، فهل ستستمر كذلك ؟ أم سيكون المسلمون العقبة الكؤود في طريقها ؟ .

---

١ - مجلة الإكنومست ٦/٨/١٩٩٤ .

مصادر التحقيق

١ - أطلس تاريخ الإسلام : د. حسين مؤنس

٢ - الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة الإسلامية . دراسة د. مصطفى حلمي.

٣ - استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية : برنارد لويس ، ترجمة سيد رضوان علي ، ط ١٩٨٢ .

٤ - تاريخ الدولة العلّية العثمانية : محمد فريد بك ، تحقيق د. إحسان حقي . دار النفائس ط ١٩٨٨ .

٥ - تاريخ المسلمين في البحر المتوسط د. حسين مؤنس .

٦ - تاريخ أوربا في العصر الحديث : هـ . ل . فيشر . دار المعارف .

٧ - تاريخ الدولة العثمانية : إشراف روبير مانتران ، ترجمة بشير السباعي ط ١٩٩٣

٨ - تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة : محمد عبدالله عدنان ط ١٩٩١ .

٩ - دراسات في تاريخ العرب الحديث : د . أحمد عزت عبدالكريم

١٠ - الروض المعطار في خبر الأقطار للحميدي ، تحقيق د. إحسان عباس .

١١ - سنن النسائي ، بشرح السيوطي .

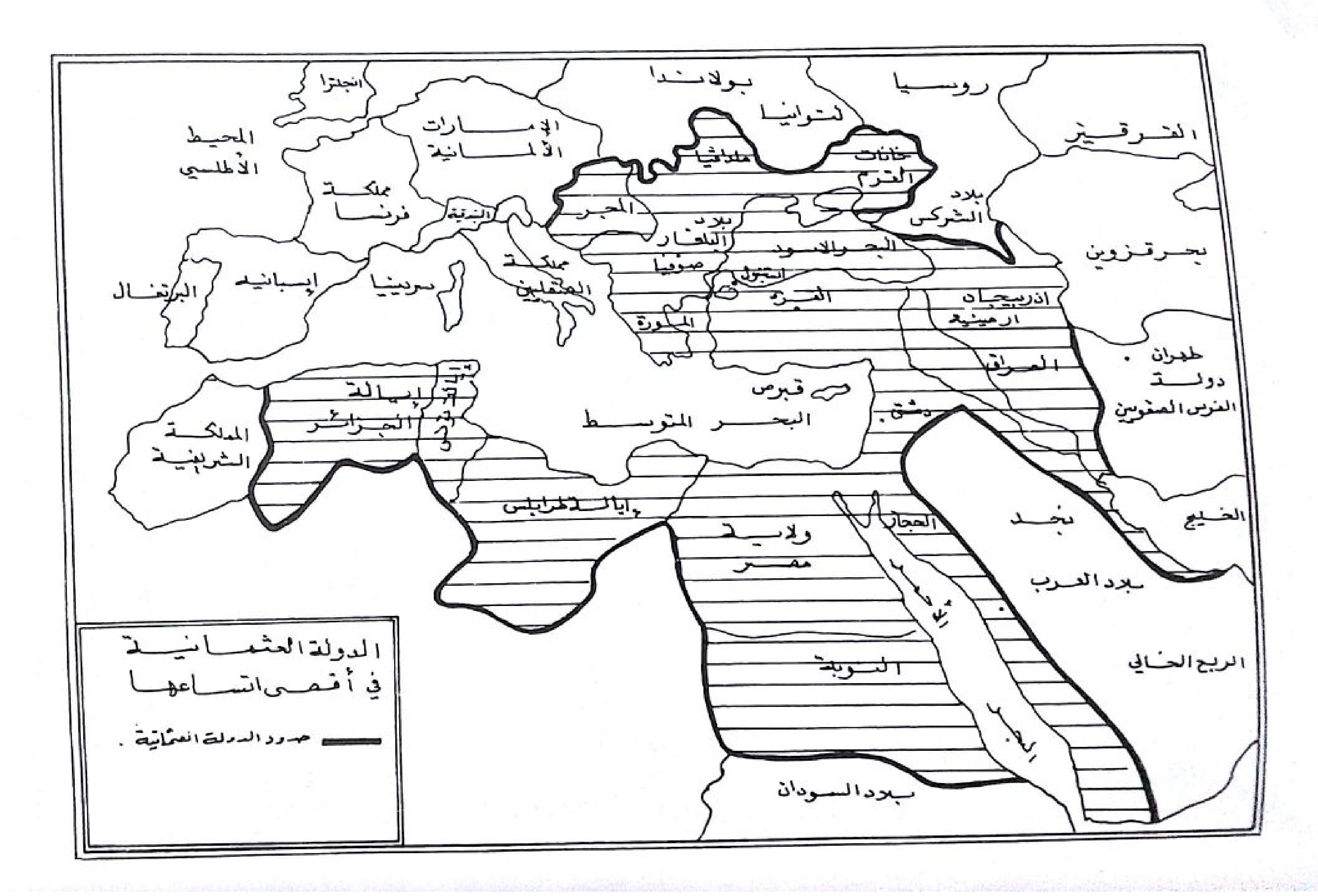
١٢ - العثمانيون في التاريخ والحضارة : د. محمد حرب ط ١٩٨٩

١٣ - المغول : د. السيد الباز العريني .

١٤ - موسوعة السياسة ١ - ٦ أسسها عبدالوهاب الكيالي ط ١٩٨٧

ATLAS of World History : Philip's 1992 - ١٥

ISLAM IN THE BALKANS, H. T. Norris, 1993. - ١٦


الدولة العثمانية
في أقصى اتساعها
حدود الدولة العثمانية .
انجلترا
بولاندا
روسيا
المحيط الأطلسي
الإمارات الألمانية
لتوانيا
القرقيز
ملدافيا
خانات القرم
مملكة فرنسا
البندقية
المجر
بلاد الشركس
بلاد البلغار
البحر الاسود
بحر قزوين
مملكة الصقليين
إسبانيه
سردينيا
صوفيا
استنبول
البرتغال
اذربيجان
ارمينية
المورة
طهران
العراق
دولة
الفرس الصفويين
قبرص
دمشق
البحر المتوسط
إيالة الجزائر
المملكة الشريفية
إيالة طرابلس
الحجاز
نجد
الخليج
ولاية مصر
بلاد العرب
النوبة
الربع الخالي
بلاد السودان

